الفصل الثالث : الأثر السياسى للفرق الإسلامية فى المجتمع الأندلسى .

المبحث الأول : توراث الشيعة والخوارج .

المبحث الثانى: التحالف بين شيعة المغرب والأندلس لإسقاط الخلافة الأموية.

المبحث الثالث :قيام دولة للشيعة بالأندلس

المبحث الرابع : وصول الخوارج الأباضية النكار للحكم فى الأندلس.

المبحث الخامس : محاولات المعتزلة الإطاحة بالخلافة .

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الأول : ثورات الشيعة والخوارج فى الأندلس :

تعتبرثورة عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر أول الثورات العربية التي كان لها صلة بالعلويين فى الأندلس ، وجد هذا الثائر هو الصحابى الجليل عمار بن ياسر كان من أشد أصحاب علي إخلاصاً له وتفانياً في الدفاع عنه، وقد قتل عمار في صفين بأيدي الأمويين ، وقد ظل عبد الله بن سعيد هذا معادياً للحزب الأموي في الأندلس، ويشير ابن حيان إلى أن هذه العداوة قد استغلها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس عند قدوم عبد الرحمن الداخل، فعهد إلى الياسريّ بقتاله لما كان يعرفه من الخصومة والثأر بين عائلتيهما، ولكن هذه الثورة لم يكتب لها النجاح [1].

والثورة الثانية هي التي قام بها الحسين بن يحيى بن سعد بن عبادة الخزرجى، فقد ثار في سنة 165 (782) بسرقسطة وخلع طاعة عبد الرحمن الداخل ، وشايعه سليمان بن يقطان الأعرابي[2] ومما يذكر أن جد هذا الثائر سعيد بن سعد كان من شيعة علي، وقد ولى له اليمن وولى أخوه قيس بن سعد مصر لعلي كذلك ، ويقول ابن حزم إنه كان من سلالة هذه الأسرة الشاعر أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذي أصبح شاعر الحموديين والناطق بلسان الشيعة في أيام ملوك الطوائف [3]

والمركز الثاني للتشيع هو القبائل البربرية، وذلك أن التشيع منذ نشأته اتخذ صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية، وكما أن التشيع في المشرق قام عليه الموالى من الفرس فكذلك في المغرب قام عليه الموالى من البربر، ولهذا فقد كانت بلاد شمال افريقية تربة خصبة للدعوات الشيعية، وقد تردد صدى التشيع في الأندلس لأول مرة بين صفوف البربر الذين اشتركوا مع العرب في الفتح، واستأثر دونهم العرب بمغانم الانتصار وثمراته.

1المقرى: نفح الطيب ، 3/ 96، 4/ 61.

2مجهول : أخبار مجموعة 112. 114 ; وانظر : ابن عذارى: البيان المغرب ، 2/ 84.

3 نقلا عنابن بسام: ذخيرة القسم الأول. 2/ 1.

لقد استقر البربر في الأندلس على الأغلب فى المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة لا سيما الممتدة في وسط شبه الجزيرة، وهي المنطقة التي كانت تعرف بالجوف وكذلك المناطق الجبلية في جنوب شرق الأندلس في كورة البيرة[1] ، ومن جملة الثورات البربرية الشيعية :

أولا : ثورة شقيا بن عبد الواحد

قام بها شقيا بن عبد الواحد المكناسى في منطقة شنتبرية Santaver، وكانت أخطر الثورات التي هددت عبد الرحمن الداخل وأطولها إذ استمرت من 151 إلى 160 (768 . 777)، وقد امتدت ما بين ماردة Mérida وقورية Coria غرباً إلى ثغور وادي الحجارة Guadalajara وكونكة Cuenca شرقاً، أي في جميع الهضبة التي تتوسط شبه الجزيرة[2]. وكان هذا الثائر معلم صبيان أصله من لجدانية Labidenia (وادي الحجارة)، وكانت أمه تسمى فاطمة، فادعى أنه فاطمي وتسمى بعبد الله بن محمد[3]. وقد سير عبد الرحمن الداخل جيوشاً كثيرة لمحاربته، منها جيش كان على قيادته عثمان بن مروان العثماني، فانتصرعليه الفاطمي وقتله[4]، وكان يستخدم أسلوباً حربياً مألوفاً لدى البربر، وهو تجنب المعارك الحاسمة في السهول والفرار إلى قمم الجبال إذا أحس بالخطر. ولم يتمكن عبد الرحمن من هذا الثائر إلا بمؤامرة دبرها بعض أصحابه له فاغتالوه سنة 160 (776 . 777)[5] ولعل هذه الثورة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي، إذ أنها سبقت تكوين دولة الأدارسة العلوية بنحو عشرين سنة. وقد كشفت هذه التجربة عما يمكن للدعوات الشيعية

1Lévi-Provençal:Histoirede Ispagne Musulmane, Paris 1953 I, 85-88

2ابن عذارى: البيان المغرب ، 2/ 80. 81.

3ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1402هـ/1982م ، 5/ 34

4ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ، 78.

5Lévi-Provençal:Histoirede Ispagne Musulmane, I, 112-224 ; وانظر : كاظم عبد : التشيع فى الأندلس ، ص134.

أن تصيبه من النجاح في أوساط القبائل البربرية [1] ، ولسنا نعلم شيئاً مفصلا عن تعاليم هذا الثائر، إلا أن ابن عذارى يسميه الداعى الفاطمى وربما دل هذا على أنه كان يدعو لغيره بالخلافة، وعلى أية حال فقد كان لثورته طابع روحي مذهبي،ومن المؤسف له أن القائد الأموي وجيهاً الغساني. وهو الذي وجهه عبد الرحمن الداخل لمحاربة شقيا. اقتنع بدعوته وآمن بها وصار من أكبر أعوانه، وظل مخلصاً له حتى بعد قتله، إذ هرب إلى جبال إلبيرة وما زال يقاتل جيوش عبد الرحمن بشجاعة واستبسال حتى قتل[2].

ثانيا : ثورة شرق الأندلس

وفي نهاية القرن الثاني الهجري تجد الدعوات الشيعية كثيراً من الرواج في العالم الإسلامي كله، لا سيما بعد أن أوقع العباسيون بالثوار العلويين الذين تزعمهم الحسين بن علي بن الحسن في موقعة فخ سنة 169 هـ/786م تلك الموقعة التي اعتبرها الشيعة كربلاء أخرى، وكان لها أثر بعيد في مصير هذا الحزب، فقد أفلت من هذه الوقعة شخصان قدر لهما النجاح في تكوين دولتين شيعيتين: وهما يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي استولى على الديلم في شمال إيران وأخوه إدريس الذي استطاع أن يقيم دولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة 170هـ ، وقد كان لهذا الاضطراب السياسي والفكري الذي عم العالم الإسلامي صداه في الأندلس وبين البربر الذين أثبتوا حاجتهم إلى زعيم روحي جديد. وقد تمثل هذا الزعيم في شخصية معلم آخر لم تحتفظ لنا المراجع باسمه قام في شرق الأندلس[3] سنة 237 هـ/851م وادعى النبوة، وكان يتأول القرآن على غير تأويله وكان من شرائعه النهي عن قص الشعر وتقليم الأظفار. وقد قبض على هذا المتنبئ وحوكم بتهمة الزندقة وعرضت عليه التوبة فلما

1محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص98،99.

2حمدى عبدالمنعم : ثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، 1995م ، ص23.

3ابن عذارى : البيان المغرب ، 2/ 134.

أبى صلب. وهذه النزعة إلى تأويل القرآن تدل على أنه كان متأثراً إلى حد ما بالدعايات الباطنية التي سبقت تكوين الدولة الفاطمية(1).

على أن قتل هذا المتنبئ لم يقض على الحركات الشيعية في الأندلس، إذ إن الدعايات الفاطمية كانت قد بلغت في هذا الوقت ذروة نشاطها في المشرق والمغرب: أما في الشرق فكان الشيعة الإمامية في فارس والعراق ينتظرون رجعة إمامه الثاني عشر محمد المهدي الذي اختفى سنة 265 في سرداب، بينما كان الشيعة الإسماعيلية أو السبعية يبشرون بظهور إمامه ويجوسون خلال البلاد الإسلامية باحثين عن البيئة الملائمة لدعوتهم، وقد تبينوا أن جماعات البربر في شمال إفريقية أصلح ما تكون لها، وصادف ذلك تفكك الوحدة السياسية والعنصرية للإمارة الأموية في عهد الأمير عبد الله. فاستغلت الدعوة الفاطمية هذه الفرصة،وحاولت الاستفادة من الثورات في الأندلس، كما أرادت هذه الثورات أن تستند إلى حجة دينية ولم تر خيراً من الدعوة العلوية.

ثالثا : ثورة عمر بن حفصون :

كانت أخطر هذه الثورات هي التي قام بها عمر بن حفصون في جنوب الأندلس، وقد امتدت سنين طويلة، واستغرقت إمارة عبد الله بن محمد (275هـ- 300هـ) وجزءً من إمارة عبد الرحمن الناصر. وقد استغل عمر بن حفصون الدعوات العلوية في شمال إفريقية، وقد ذهب أحد الباحثين المحدثين إلى أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة العلوية، وإنما كان يتخذها مطية لأغراضه، يكايد بها الأمويين في قرطبة متى شاء(2).

عاصر ابن حفصون في ثورته أربعة من الأمراء الأمويين، بدءًا من عام 267هفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمنوحتى عهد عبد الرحمن الناصر لدين اللهوسيطر خلالها على مناطق كبيرة في جنوب الأندلس، ولاقت حركته ترحيب من أعداد كبيرة من سكان تلك المناطق

1كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، 1950م ، ص 17.
2محمود مكى : التشيع ، ص 101.

من المولدينوا لمستعربين، وقاومتها سلطات الدولة بحزم إلى أن أنهى عبد الرحمن الناصر لدين الله حركة ابن حفصون وخلفائه تمامًا عام 316هـ، بعد عشر سنوات على وفاة عمر بن حفصون نفسه.

ينتمي عمر بن حفصون لأسرة من المولدينقوطيةالأصل قرب باراوتا،فجده الأعلى وقت الفتحهو القس ألفونسو، وأول من أسلم من أسرته هو جده الرابع جعفر. فنسبه هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس، ويرى المؤرخ فيسترشتاين أن نسبة ابن حفصون لفروغيلو من اختراع عمر بن حفصون نفسه ،وفي عام 1820م قال المؤرخ كونديأن ابن حفصون : " رجلاً من أصول وثنية غامضة وغير معروفة " (1) ، وبغض النظر، فقد كانت أسرته تمتلك أراض في تاكرنامن أعمال رندة، حيث نشأ ابن حفصون،وقد كان أبوه حفصون من ذوي الوجاهة والأموال، حيث ذكر ابن القوطية، أنه كان شقيّا في شبابه، وقد عاقبه عامل رية بالسياط لذنب اقترفه، فعبر البحر إلى تاهرت، وعمل لدى خياط، وهناك تنبأ له شيخ قابله بأنه سيصبح له ملك عظيم، ودعاه للعودة إلى بلده (2).

هجر عمر بن حفصون أسرته وهو في سن صغير، والتف حوله جماعة من الفاسدينوألّفوا عصابة ونزلوا بجبل ببشتر،واتخذه قاعدة ينطلق منها بهجماته على أطراف كورة رية. وفي عام 267 هـ وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، كانت بداية ثورة عمر بن حفصون في كورة رية، حين سار إليه عامر بن عامر والي رية ببعض القوات عندما رأى أن أمر ابن حفصون قد اشتد، إلا أن ابن حفصون هزمه وطرده،مما شد من شوكته، وجمع بذلك حوله المتمردين والثائرين. عزل الأمير عامل رية، وعيّن مكانه عاملاًغيره لم يستطع أيضًا

1Un hombre de orígen pagano, de oscura y desconocida prosapia, llamado Omar ben Hafs, José Antonio Conde, Historia de la dominación de los Arabes en España, Madrid: Garcia, 1820, p. 295

2أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص103،104.

هزيمة ابن حفصون لتحصنه في قلاعه. لجأ ابن حفصون إلى إثارة النزعة الإثنية عند المولدينوالمستعربينضد الدولة الأموية في الأندلس[1]في المناطق التي سيطر عليها، عبر نشر دعوات التخلص من نير العرب الغزاة، وقد نقل ابن عذاريقوله في أحد خطبه: " طال ما عنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستعبدتكم. وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأُخرجكم من عبوديتكم " [2].

وقد لقيت دعوته تلك ترحيب ممن يؤيدون قضية الاستقلال عن السلطة المركزية في قرطبة. كما كان لنجاحه في فرض الأمن في المناطق التي استولى عليها بصرامته في أحكامه وعقوباته على المخالفين، كما كان لتوددده إلى أصحابه وإثابة الشجعان منهم أثره في توطيد سيطرته وتعلُّق أصحابه به. [3]

عمل الأمير محمد على السيطرة على ثورة عمر بن حفصون، فسيّر الأمير محمد الوزير هاشم بن عبد العزيزعام 270 هـ في قوة كبيرة إلى كورة رية، أرغمت ابن حفصون ورجاله على الاستسلام، وأخذهم إلى قرطبة، حيث عفا عنه الأمير، وضمه إلى جيشه ، وقد شارك ابن حفصون في جيش المنذر بن الأمير محمد والوزير هاشم بن عبد العزيز إلى الثغر الأعليلقتال محمد بن لب بن موسيوالي سرقسطة الخارج على الأمير وحليفه ألفونسو الثالث ملك أستوريشعام 270 هـ ، وفي العام التالي 271 هـ، فر عمر بن حفصون إلى جبل ببشتر، فأرسل له الأمير محمد حملة حاصرته.

ظل ابن حفصون لعامين يغير على المناطق المجاورة، حتى بعث له الأمير محمد ابنه المنذر مرة أخرى عام 273 هـ، حيث بدأ المنذر بمهاجمة مدينة الحامة شمال شرق مالقة معقل الثائر

---

1 Yeor, Bat; Kochan, Miriam and Littman, David (2002) Islam and Dhimmitude: Where Civilizations Collide Fairleigh Dickinson University Press, Madison, NJ, p. 63

2أنظر : البيان المغرب ، 117/2 ; وانظر : دوزى : " المسلمون فى الأندلس ، 145/1.

3دوزى : مرجع سابق ، 145/1.

ابن حمدون حليف ابن حفصون، فهبّ ابن حفصون لنجدة حليفه ودافع عن المدينة المحاصرة من قبل المنذر لشهرين، قبل أن تتقاتل قوات ابن حمدون وابن حفصون مع جيش المنذر في معركة انهزم فيها المتمردون، وجرح فيها ابن حفصون وعاد الاستعصام بالمدينة.

وفي تلك الأثناء، جاءت أنباء وفاة الأمير محمد في 29 صفر 273 هـ، فأسرع المنذر بجيشه إلى قرطبة، فاستغل ابن حفصون الفرصة، وراسل أصحاب الحصون في كور إلبيرةوجيانفأطاعوه، فعمّت بذلك الثورة في مناطق واسعة من شرق الأندلس.فسيطر على معظم حصون المنطقة، لتصبح بذلك رية ورندة وإستجة، وأرشذونةومالقةوجيان وباغةوقبرةتحت سلطته ،كما راسل إبراهيم بن الأغلبأمير إفريقيةيدعوه للتحالف معه، إلا أن ابن الأغلب لم يستجب لدعوته ،وقد أرسل لهم المنذر بعض الحملات التي حققت بعض الانتصارات العسكرية، إلا أنها لم تنهي تلك الثورة ،وفي عام 274 هـ، خرج المنذر بنفسه لقتاله، فبدأ بافتتاح الحصون التي والت ابن حفصون، فأضعف بذلك من قوة ابن حفصون، ثم سار إلى ابن حفصون، فحاصره وضيّق عليه. فلجأ ابن حفصون حيلة بأن أوهم الأمير بموافقته على الصلح، فأجازه المنذر على أن ينزل بأهله إلى قرطبة. فطلب ابن حفصون مائة بغل لينقل عليها أهله وماله، فوافق الأمير، وأرسل معها مائة وخمسين فارسًا لحمايتها، وفك الأمير الحصار،وإذ هو في طريق العودة إلى قرطبة، جاءه خبر غدر ابن حفصون برجاله ونهبه للبغال، فعاد الأمير وحاصره ثانية لثلاث وأربعين يومًا، وأصابه المرض وهو يحاصر ابن حفصون، ولم تمض فترة قصيرة حتى مات.

مع بداية حكم الأمير عبد الله، لجأ ابن حفصون إلى مهادنة الأمير الجديد، فبعث ابنه حفص إلى قرطبة في جماعة من أصحابه، لعقد السلم مع الأمير على أن يقيم في ببشتر في طاعة الأمير، فأقره عبد الله على ذلك، وبعث بعامل له على كورة رية، ليحكمها بالمشاركة مع ابن حفصون. لم تمض أشهر حتى طرد ابن حفصون عامل الأمير، وعاد واستولى على أرشذونة.فسار له عبد الله بنفسه عام 276 هـ، واجتاح ببشتر،إلا أن ابن حفصون لجأ إلى

الجبل وتخفّى فيه. وعند عودة الأمير إلى قرطبة، نزل ابن حفصون وهاجم إستجة واستولى عليها إلى أن بعث إليها الأمير من أجلاه عنها. ثم ثار خير بن شاكر في جيان، وفشلت قوات الأمير بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدةفي إخضاعه، فبعث ابن حفصون بعض رجاله بحجة مساعدة ابن شاكر، إلا أنهم غدروا به وقتلوه، وحملوا رأسه إلى ابن حفصون الذي أرسلها إلى قرطبة تودداً للأمير، إلا ان الأمير عبد الله لم يقبل ذلك منه، فأغار ابن حفصون على جيان وانتهبهافي العام نفسه 276 هـ، دخل ابن حفصون في صراع آخر، فقد كانت القبائل العربية بقيادة سوار بن حمدون القيسي في كورة إلبيرةقد ثارت على الأمير، وأغارت على حصون المولدين والمسيحيين في تلك المنطقة، وامتدت سلطتها حتى قلعة رباح، مما دعا ابن حفصون للاشتباك معهم في عدة معارك انتهت بهزيمته ومقتل عدد من قادته ،وقد أصيب ابن حفصون في يده اليمنى في إحدى تلك المعارك،أعجزته عن الأكل بها الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته.

وفي عام 278 هـ، نقل ابن حفصون قاعدته إلى حصن بلاي الذي تقع محله اليوم بلدية أغويلار ديلا فرونتيرا، وأغار منها على ضواحي قرطبة، فجهّز الأمير جيشًا قوامه 18 ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة سار به لقتال قوات ابن حفصون التي بلغت يومها 30 ألفًا، والتقيا على ضفاف أحد فروع نهر الوادي الكبير في 2 صفر 278 هـ، وانتهت المعركة بهزيمة مروعة لجيش ابن حفصون،فرّ على إثرها إلى ببشتر، بينما سار جيش الأمير غربًا لاستعادة إستجة، فحاصرها أيامًا حتى استسلمت وعادت لطاعة الأمير. ثم سار جيش الأمير إلى ببشتر، فاجتاحها ثم قفل راجعًا إلى قرطبة.

في عام 281 هـ، سار المطرف بن الأمير عبد الله إلى ببشتر وحاصرها لفترة قبل أن يقاتله ابن حفصون، في معركة هُزم فيها ابن حفصون،وفي عام 284 هـ، هاجم ابن حفصون إستجة واستولى عليها، فسير الأمير جيشًا بقيادة ولده أبان والقائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة لقتاله، واشتبكا معًا في عدة معارك غير حاسمة. وفي العام التالي، تحالف ابن حفصون مع محمد بن

لب بن موسيضد الأمويين، وبعث له محمد ابنه لبفي بعض قواته، إلا أن وفاة محمد بن لب وهو يحاصر طليطلة، أدت إلى إفشال التحالف وانسحاب لب بن محمد بقواته ليخلف أباه.

كان الأمير عبد الله قد أرسل ابنه المطرف عام 282 هـ، لإخماد التمرد في إشبيلية،واستطاع المطرف أسر قادة التمرد إبراهيم بن حجاج اللخميوكريب بن خلدون وحملهم إلى قرطبة. ثم أطلقهم الأمير على أن يترك ابن حجاج ابنه عبد الرحمن رهينة لدى الأمير، وأن يقتسم ابن حجاج وابن خلدون ولاية إشبيلية. بعد فترة، غدر ابن حجاج بكريب، وانفرد بولاية إشبيلية، ثم طلب من الأمير إطلاق ابنه، فلم يجبه إلى ذلك، فتحالف مع ابن حفصون عام 288 هـ، ليضغط على الأمير. حاول الأمير إفشال هذا التحالف بمراسلة ابن حفصون للصلح، إلا أن ذلك لم يتم، فأرسل له الأمير ابن أبي عبدة عام 289 هـ بجيش اشتبك مع قواته في إستبة، أوقع بقوات ابن حفصون هزيمة كبيرة،واستجاب الأمير لطلبه وأطلق ولده، فعاد ابن حجاج للطاعة.

وفي عام 286 هـ، أعلن ابن حفصون اعتناقه المسيحية، وتسمى باسم صمويل، في خطوة عدّها بعض المؤرخين أمثال ليفي بروفنسالوفاسترشتاين، أن خطوة بدافع انتهازي [1]أملاً في الحصول على دعم عسكري من قبل ألفونسو الثالث ملك أستورياس ,الذي كان على اتصال بابن حفصون من خلال عبد الرحمن بن مروان الجليقي .وقد كان تحول ابن حفصون إلى المسيحية، خطأ سياسيًا كبيرًا. فعلى الرغم من أن تلك الخطوة أكسبته عددًا من المؤيدين المستعربين, إلا أنها أفقدته معظم أتباعه من المولدين الذين انقلبوا عليه وأعلنوا ولائهم للأمير، كما ساعد ذلك في شحن المسلمين في الأندلس ضد ابن حفصون الذين عدّوا قتاله جهادًا .توالت حملات الأمير على ابن حفصون، ففي عام 291 هـ، سار أبان ابن الأمير عبد الله ومعه القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى كورة رية لقتال ابن حفصون، فاجتاحوا رية، وهزموا ابن حفصون في عدة مواقع. ثم ألحق جيش آخر خرج في العام التالي بابن

1Lévi-Provençal, *Histoire de lEspagne Musulmane*, Paris, 1950, vol. 1, p. 377

حفصون هزيمة شديدة قرب جيان، قُتل فيها عدد كبير من أتباعه. كما تعرض ابن حفصون لعدة حملات أخرى أعوام 295 هـ، و 297 هـ و 299 هـ، انتهت كلها بهزيمته، لكن دون أن تنجح في القضاء عليه.

بدأ الأمير عبد الرحمن بن محمدعهده بحملة عرفت باسم "غزوة المتلون" في رمضان 300 هـ، بدأها باسترداد إستجةمن أتباع ابن حفصون ،ثم انتزاع حصون غرب الأندلس التي احتلها حلفاء ابن حفصون، ثم سائر حصون كورة جيان .ثم توجه عبد الرحمن بالجيش إلى رية، وأخضع حصونها، ثم استرد مدينة وادي آشوحصونها وسائر حصون جبل الثلج.حاول ابن حفصون أن يشغله بغزو غرناطة، فقاومه أهل إلبيرة بمساعدة من بعض قوات عبد الرحمن، وهزموه ،وقد أسقط عبد الرحمن 70 حصنًا من الحصون الخاضعة لابن حفصون في تلك الحملة ،ثم عاد ابن حفصون بعد عودة الأمير عبد الرحمن إلى قرطبة، فهاجم حصون كورة ريّة والجزيرة الخضراء، فثارت مجددًا. فخرج له عبد الرحمن في شوال 301 هـ، فبدأ بحصار قلعة طرش، وهناك وقعت معركة بين قوات الأمير وقوات ابن حفصون، قُتل فيها عدد كبير من قوات ابن حفصون وحلفائه، ففر إلى ببشتر.كما نجح عبد الرحمن في ضبط عدد من السفن المحملة بالمؤن التي أرسلها الفاطميون مددًا لابن حفصون، وأحرقها.

بعد أن انقطعت السبل أمام عمر ابن حفصون، لجأ في عام 303 هـ إلى طلب الصلحبسعى من يحيى بن إسحاق طبيب الأمير وصديق ابن حفصونفقبل عبد الرحمن العرض، وكلّف يحيى بن إسحاق بالتفاوض مع ابن حفصون على شروط الصلح. فاتفقا على عدة شروط منها أن يقر الأمير لابن حفصون سيطرته على 162حصنًا على أن يدخل ابن حفصون في طاعة الأمير، وقد خطّ عبد الرحمن في أسفل الكتاب بخط يده:

" يا لله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب، وجميع إيمان البيعة لازمتي من العهود المشددة، والأيمان المؤكدة، والمواثيق المغلظة، لا نقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله، ولا نقصان شيىء منه، ولارضيت ذلك في سر ولا جهر، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود

والمواثيق لازمتي، والله شهيد علينا، وخططنا هذه الأحرف بيدنا، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا، وكفانا بالله شهيداً، ما وفى عمر بن حفصون بما نص في هذا العهد وصحح فيه إن شاء الله، والله المستعان" (1).

وقد سعد بذلك ابن حفصون، وتبادلا الهدايا، ولزم ابن حفصون هذا العهد حتى مماته في ربيع الأول من عام 306 هـ.

مات عمر بن حفصون وله أربعة من الأبناء سليمان وجعفر وعبد الرحمن وحفص وإبنة واحدة تدعى أرخنتاإضافة إلى ابن كان يدعى أيوبقتله أبوه بزعم أنه حاول الانقلاب عليه حين مرض ذات مرة(2)،وقد دفن عمر بن حفصون في كنيسة ببشتر. وبعد وفاته، اقتسم أبناؤه الحصون الخاضعة له،وحاول بنيه جعفر وعبد الرحمن وحفص، أن يستكملوا الطريق الذي انتهجه أبوهم في تمرده على الأمويين، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود طويلاً أمام حملات عبد الرحمن الناصر. فاستسلم حفص آخر أبناء ابن حفصون لجيش الأمير، وسلّم ببشتر عام 316 هـ/928م ،حينئذ، أمر الأمير عبد الرحمن باستخراج رفات ابن حفصون وأبنائه، وصلبهم أمام جامع قرطبة،وقد ظلت رفاته مصلوبة أمام الجامع حتى عام 331 هـ (3).

وقد اختلفت الرؤى حول ثورة عمر بن حفصون على الدولة الأموية في الأندلس على النحو التالى :

أولا : اعتبرته المصادر المسيحية ثائرًا وبطلاً قومياً هدف إلى غاية وطنية سامية وإلى تحرير وطنه من المسلمين، غير أن نفس المصادر لم تنكر كون ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق. وقد حاول بعض المؤرخون أمثال سيمونيتتبرير حركة ابن حفصون، بأن حركته اتخذت فيما بعد "شكلا أكثر نبلاً، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة (4).كما

1ابن حيان : المقتبس ، نقلا عن عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، 2/ 381.

2ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص32.

3عنان : دولة الإسلام ، 2/384،383.

4Simonet : historia de los mozarabes de espana , Madrid , 1897,p.516.

وصفه دوزيبأنه "البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عامًا يتحدى المتغلبين عليوطنه، والذي استطاع مرارًا أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم" وأنه "كان بطلاً خارقًا لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان (1).

ثانيا : وصفته المصادر الإسلامية بأنه من الخوارج على الأئمة، فقد وصفه ابن حيان القرطبيبأنه "إمام الخوارج وقدوتهم، أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم قوة" (2).

ويقول عنه ابن عذارى : " وعندما ولي عبد الله الخلافة، ووافته الكتب من البلاد; واجتمعت على طاعته جميع العباد، رأى عمر بن حفصون على فرط عناده، وتوه في الأرض وفساده، أن يدخل في جماعته، ويلتزم بفروض طاعته. فأرسل ابنه حفصا إلى قرطبة مع جماعة من أصحابه، على أن يعقدوا مع الأمير سلما منتظما، وصلحا مبرما، لا يحيله حال، ولا يلحقه محال، على أن يستقر عمر بن حفصون ببربشتر على الطوع، ويقيم بها على الطاعة والسمع. فقبل الأمير نزاعه، وسمح بإبقائه هنالك، وأصدر ابنه ورسله إصدارا جميلا; ومنحهم برا جزيلا، ووجه معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف واليا على كورة رية، ومشاركا لابن حفصون في عقده وحله، ومساهما له في توليته وعزله. فمكثا شريكين في الأمر والنهي، إلى أن غلب ابن حفصون على عبد الوهاب، وأخرجه من الكورة منبت الأسباب. واشتدت معرَّته، وتأكدت عاديته ومضرته، حتى همت القرى بالخلاء، والناس بالجلاء. ولم يبق بالقنبانية قرية إلا غشيتها الخيل، وعمتها الذلة والوبل، وقد ملك اللعين إستجة وأرجذونة، وأجتدهمت ثقافا، وصير فيهما من الآلات أصنافا.فلما رأى الأمير عبد الله ما أحاط بقرطبة من ابن حفصون، ودار عليها من الحرب الزبون، أمر بإخراج السرادق إلى فحص الربض بشقندة. فلما اشتدت أطنابه، ومدت حبائله وأسبابه، بعث ابن حفصون خيلا ترمي على شقندة لعلها

1أنظر : المسلمون فى الأندلس ، 227/1.

2أنظر : المقتبس ، نشر ملشيور أنتونيا ، باريس ، 1937 ، ص7.

تأخذ السرادق السلطاني وتفوز به، وتهجم على البلد وتحيط بجانبه. فخرجت لهم الخيل إثر ذلك، وطردتهم طرادا من هنالك، ووصلت إلى ابن حفصون; فدفعته عن الجهة، ومنعته من تلك الوجهة، وأوى إلى حصن بلبى بقبرة; فجمع له الأمير أهل قرطبة، وسار إليه في نحو أربعة عشر ألفا. وحشد ابن حفصون نحو ثلاثين ألفا; فصدمه الأمير بمن معه; فنثر عقده وفرق جمعه; فعملت السيوف في رقابهم، وتبعت سيل أعقابهم، حتى رويت الأرض من دمائهم. ودخل الأمير عبد الله القلاع الثائرة عليه; وصارت يومئذ في يديه. وفي ذلك يقول ابن عبد ربه منالكامل :

رَامَ ابن حفصُونَ النجاةَ فَلَمْ يَسِرْ ... والسَّيْفُ طالِبُهُ فَلَيْسَ بِنَاجِ
في لَيلَةٍ أَسرَتْ بِهِ فَكَأَنَّما ... خِيلَتْ نَقيضَةَ لَيلةِ المِعراجِ
مَا زَالَ يُلقِحُ كُلَّ حَربٍ حَامِلٍ ... فالآنَ أَنْتَجَها بشَرٍّ نَتاجِ
رَكِبُوا الفِرَارَ بِهُضبةٍ قَدْ جَرَّبوا ... غِبَّ السُّرَى وعَواقِبَ الإدلاجِ
وإذا سَألتُهم مَوَالِيَ مَن هُمُ ... قَالُوا: موَالِي كُلِّ لَيلٍ دَاجِ

ولمّا رجع ابن حفصون إلى بربشتر، حشد أعوانه، وجدد للعرض ديوانه، وخرج بجمعه إلى إلبيرة، وأدار بها حربا مبيرة، إلى أن تغلب عليها بأيده، وقبض على عاملها بكيده. فأخرج الأمير عبد الله العسكر إليه، وقدَّم ابن أبي عبدة عليه. فلما تدانى الفريقان، وتراءى الجمعان، هجمت خيل ابن أبي عبدة على خيل ابن حفصون; فعكستهم عسكاً، وطمست آثارهم طمساً ; وأثقل ابن حفصون بالجراح، وآب من النصر صفر الراح، قد ركب الأوعار، واجتمل الخزي والعار; ويبلغ حصن بربشتر مفلولا، خاسرا ذليلا. ثم عاد إلى عاده، وسبيل بغيه وفساده. وفي كل ذلك كان الأمير عبد الله يهزم جيشه، ويروع ببأسه جأشه، حتى خمدت نيرانه، وملت أنصاره وأعوانه. فلما توفي الأمير عبد الله، وولى الناصر لدين الله، بادر إلى الطاعة، والدخول في الجماعة. ثم نكث وخان، حتى هلكته الأزمان. " (1).

1أنظر : البيان المغرب ، 1/197.

ويحدثنا ابن خلدون عن ابن حفصون وثورته فيقول : " هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس هكذا نسبه ابن حيان أول ثائر كان بالأندلس وهو الذي افتتح الخلاف بها وفارق الجماعة أيام محمد بن عبد الرحمن في سني السبعين والمائتين خرج بجبل يشتر من ناحية رية ومالقة وانضم إليه الكثير من جند الأندلس ممن في قلبه مرض في الطاعة وابتنى قلعته المعروفة به هنالك واستولى على غرب الأندلس إلى رندة وعلى السواحل من الثجة إلى البيرة وزحف إليه هاشم بن عبد العزيز الوزير فحاصره واستنزله إلى قرطبة سنة سبعين ثم هرب ورجع إلى حصن يشتر ولما توفي الأمير محمد تغلب على حصن الحامة ورية ورندة والثجة وغزاه المنذر سنة أربع وسبعين فافتتح جميع قلاعه وقتل عامله برية ثم سأل الصلح فعقد له المنذر ثم نكث ابن حفصون وعاد إلى الخلاف فحاصره المنذر إلى أن هلك محاصرا له فرجع عنه الأمير عبد الله واستفحل أمر بن حفصون والثوار وتوالت عليه الغزوات والحصار وكاتب ابن الأغلب صاحب أفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسية بالأندلس فيما إليه وتثاقل ابن الأغلب على إجابته لاضطراب أفريقية فأمسك وأكثر الأجلاب على قرطبة وبنى حصن بلاية قريبا منها وغزاه عبد الله وافتتح بلاية والثجة ثم قصده في حصنه فحاصره أياما وانصرف عنه فاتبعه ابن حفصون فكر عليه الأمير عبد الله وهزمه وأثخن فيه وافتتح البيرة من أعماله ووالى عليه الحصار في كل سنة فلما كانت وثمانين عمر بن حفصون وخالص ملك الجلالقة فنبذ إليه أمراؤه بالحصون عهده وسار الوزير أحمد بن أبي عبيدة لحصاره في العساكر فاستنجد بإبراهيم بن حجاج الثائر بأشبيلية ولقياه فهزمهما وراجع ابن حجاج الطاعة وعقد له الأمير عبد الله على أشبيلية وبعث ابن حفصون بطاعته للشيعة عندما تغلبوا على القيروان من يد الأغالبة وأظهر بالأندلس دعوة عبيد الله ثم راجع طاعة بني أمية عندما هيأ الله للناصر ما هيأه من استفحال الملك واستنزال الثوار واستقام إلى أن هلك سنة ست وثلثمائة لسبع وثلاثين سنة من ثورته وقام مكانه ابنه جعفر أقره الناصر على أعماله ثم دس إليه أخوه سليمان بن عمر بعض رجالاتهم فقتله لسنتين أو ثلاثة من ولايته

وكان مع الناصر فسار إلى أهل يشتر وملكوه مكان أخيه وذلك سنة ثمان وثلثمائة وخاطب الناصر فعقد له كما كان أخوه ثم نكث وتحرر إنكاثه ورجوعه ثم بعث إليه الناصر وزيره عبد الحميد بن سبيل بالعساكر ولقيه فهزمه وقتله وجيء برأسه إلى قرطبة وقدم المولدون أخاه حفص بن عمر فانتكث ومضى على العصيان وغزاه الناصر وجهز العساكر لحصاره حتى استأمن له ونزل إلى قرطبة بعد سنة من ولايته وخرج الناصر إلى يشتر فدخله وجال في أقطاره ورفع أشلاء عمرو ابنه جعفر وسليمان فصلبهم بقرطبة وخرب جميع الكنائس التي كانت في الحصون التي بنواحي رية وأعمال مالقة ثلاثين حصنا فأكثر وانقرض أمر بني حفصون وذلك سنة خمس عشرة وثلثمائة والبقاء لله. " (1).

ولعل الدافع وراء تصنيفنا لهذه الثورة على أنها شيعية يرجع إلى ثلاثة أسبابهى :

الأول : ذكر ابن حزم أن ابن حفصون خطب للقاسم ابن إبراهيم الإدريسي صاحب البصرة(2).

الثاني : أن عمر ابن حفصون خطب فى أعماله برية لعبيدالله المهدى صاحب أفريقية ، وأذن فيها بحى على خير العمل(3).

الثالث : ما ذكره ابن الخطيب أن ابن حفصون خاطب الفاطميين في إفريقية فوجهوا إليه داعيين ممن يعتقد بمذهبهم وقدم هذان ، فحضا عمر بن حفصون على التمسك بطاعة الفاطميين وإقامة دعوتهم بالأندلس وقد أقام هذان الداعيان لدى ابن حفصون واستعان هذا بهما في حروبه ضد بني أمية ثم وجه بهما مرسلا معهما هدية إلى الخليفة الفاطمي (4).

1أنظر : العبر ، 4/134 وما بعدها .

2أنظر : جمهرة أنساب العرب ، 44.

(3) ابن حزم ، رسالة نقط العروس ، رسائل2/84 ، ورية إحدى كور الأندلس التى خصت بأنهار غزيرة بحرية ومدنها كثيرة منها أرشذونة ومالقة . أنظر: ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص294.

4أنظر : أعمال الأعلام ، ص 36.

رابعا : ثورة أحمد بن معاوية القط :

ومن الثورات التي تأثرت بالدعوة الفاطمية تأثراً عميقاً ثورة أحمد بن معاوية بن هشام الأموي المعروف بالقط الثائر سنة 288 هـ/901م ومرة أخرى نرى هذه الدعوة تجد آذاناً صاغية بين القبائل البربرية في نفس المنطقة التي انتشرت فيها الدعوات الشيعية من قبل، أي منطقة الجوف على طول الثغر الأدنى والحدود بين المملكة الإسلامية والمملكة المسيحية: ما بين ماردة ووادي الحجارة، ولكن هذه الثورة التي وجهت بعد ذلك للجهاد ضد المسيحيينفي إسبانيا سرعان ما تحطمت على أسوار سمورة «Zamora» على يد ألفونسو الثالث ملك أشتوريش «Asturias» (1). وعلى الرغم من أن قائد الثورة كان أحد أفراد البيت الأموي إلا أن اللون الفاطمي كان واضحاً فيها للآتى :

أولا : تسمية قائد الثورة بالمهدي، ويضيف ابن حيان أنه كان يسمى أيضاً فائز الدين وعاصم المسلمين(2) وهي ألقاب لم نسمعها قبل في الأندلس، وهذا هو نفس اللقب الذي اتخذه عبد الله بن الحسين الفاطمي أول أئمة دور الظهور في شمال إفريقية، وذلك بعد ابن القط بثمانية أعوام سنة 296 هـ/909م.

ثانيا : الاهتمام الكبير بأن يكون لهذا الامام «داع» ذو شخصية قوية ينظم الأمر ويجمع له الأنصار، وكما كان داعي الإسماعيلية في المغرب أبا عبد الله الشيعي كان داعي المهدي الأندلسي أبا على السراج الذي تقلد له الأمر ونشر الدعوة معتمداً على نقباء بثهم في صفوف القبائل البربرية كما كان الشيعي يعتمد كذلك على طائفة كبيرة من الدعاة الذين كانوا يسمون «النقباء» أيضاً. وقد صور ابن حيان لنا مدى ما كان يتمتع به هذا الداعي من احترام بينأنصاره الذين كادوا يقدسونه. وتبدو لنا فكرة الداعي وطبقات النقباء بعده منقولة عن

1عبدالمحسن رمضان : الحروب الصليبية فى الأندلس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 2001م ، ص500.

2ابن حيان: المقتبس ، 133.

نظم الإسماعيلية التي جعلت لـ «داعي الدعاة» مركزاً كبيراً يلي رتبة الإمام واهتمت بإحكام طبقات الدعاة اهتماماً لم تعرفه حركة سرية من قبل[1].

ثالثا :كان الاعتماد على الكرامات وإظهار الإحاطة بالعلوم من الأشياء التي حاول المهدي الجديد أن يؤثر بها على أنصاره من البربر، ويذكر أنه كان يتكهن لهم ويصطنع حيلا من الشعوذة يوهمهم أنها كرامات له. وكان هذا من الوسائل التي اصطنعها الداعي الإسماعيلي لجذب الأنصار إليه أول قيامه بالمغرب[2].

أما بخصوص ثورات الخوارج فى الأندلس : فلا يمكننا الحديث عنها بمعزل عن ثوراتهم بالمغرب ، وذلك لتأثر الأندلس بالمغرب فى هذا الشأن إذ بوفاة عقبة بن الحجاج آلت ولاية الأندلس إلى عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ مرَّة ثانية 123هـ/742م [3] وقد حفلت ولايته الثانية هذه بأحداث جسام، كادت أن تعصف بالإسلام في الأندلس كلية، كان أخطرها تجدُّد الصراع العنصري البغيض بين العرب والبربر، وظهور طائفة الخوارج، الذين أشعلوا أُوَارالحرب وقادوا الثورة على عمال بني أمية، الذين أساءوا استعمال السلطة والمعاملة مع (البربر); مما أتاح للبربر اعتناق تلك الأفكار الخارجة عن الدين; فقد وجدوا فيها مناصًا لنيل حقوقهم المغتصبة من جَوْر الولاة [4].

أرسل البربر ميسرة المطغريّ على رأس وفدٍ إلى الشّام لمقابلة الخليفة. وكان وزير هشام بن عبدالملك الأبرش الكلابيّ، وهو على ما هو من التّكبّر والطغيان، فمنعهم من مقابلة

1محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص102،103.

2كاظم عبد : التشيع فى الأندلس ، 137.

3 ابن عذاري: البيان المغرب 30/2، وانظر : المقري: نفح الطيب 236/1.

4 حسين مؤنس: فجر الأندلس ص170-173، ; وانظر : محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص79، 80.

الخليفة، ما أغضب الوفد، الذي كان يقوده "ميسرة"، وعادوا إلى أفريقيا، وأعلنوا الثورة، وقتلوا عامل هشام بن عبدالملك، وظهرت دعوة الخوارج الصفريّة، وتولّى أمرهم "ميسرة".

ويقول "ابن خلدون"، في قبيلة مطغرة، وابنها المدافع عنها ميسرة المطغريّ:"كان جمهورهم بالمغرب، منذ عهد الإسلام، ونوبة الفتح، وشؤون الرّدة وحروبها، وكان لهم فيها مقامات. ولمّا استوثق الإسلام في البربر، أجازوا إلى فتح الأندلس، وأجازت منهم أممٌ، واستقروا هنالك. ولما سرى دين الخارجيّة في البربر، أخذ "مطغرة" هؤلاء برأي الصفريّة. وكان شيخهم "ميسرة"... ولمّا وُلّي عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية، من قبل هشام بن عبد الملك، وأمره أن يمضي إليها من مصر، فقدمها سنة 114 هـ، واستعمل عمر بن عبد الله المراديّ على طنجة والمغرب الأقصى، وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه. واتّصل أمر ولايتهم وساءت سيرتهم في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يُطالبونهم به من الوصائف البربريّات، والأفرية العسليّة الألوان، وأنواع طرف المغرب، فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك وانتحاله. حتى كانت الصرمة من الغنم تُستهلك بالذّبح، لاتّخاذ الجلود العسليّة من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلّا الواحد وما قرب منه. فكثُر عيثهم بذلك في أموال البربر، وجورهم عليهم. امتعض لذلك ميسرة الحفيد، زعيم مطغرة، وحمل البربر على الفتك بعمر بن عبد الله، عامل طنجة، فقتلوه سنة خمس وعشرين ، وولّى "ميسرة" مكانه عبد الأعلى بن خدع الإفريقيّ الروميّ الأصل، وكان من موالي العرب وأهل خارجيّتهم، وكان يرى رأي الصفريّة، فولّاه "ميسرة" على طنجة، وتقدّم إلى "السوس"، فقتل عامله إسماعيل بن عبد الله، واضطرم المغرب ناراً. وانتقض أمره على خلفاء المشرق، فلم يُراجع طاعتهم بعد. وزحف "ابن الحبحاب" إليه، من القيروان، في العساكر، وعلى مقدّمته خالد بن أبي حبيب الفهريّ، فلقيهم "ميسرة" في جموع البرابرة، فهزم المقدّمة، واستلحمهم، وقتل خالد. وتسامع البربر بالأندلس بهذا الخبر، فثاروا بعاملهم عقبة بن الحجاج السلوليّ، وعزلوه، وولّوا عبد الملك بن

قطن الفهريّ، وبلغ الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك، فسرّح كلثوم بن عيّاض في اثني عشر ألفاً من جنود الشّام، وولّاه على إفريقية، وأدال به من عبيد الله بن الحبحاب " (1).

لقد بدأت الفتنة (البربرية) الكبرى في المغرب العربي على يد الخوارج، الذين خرجوا بقيادة زعيمهم ميسرة المطغري –أو المدغري– على حاكم طَنْجَة عمر بن عبد الله المُرَادِيّ ;وقتلوه، وزحفوا إلى بلاد السوس في الغرب وقتلوا عاملها إسماعيل بن عبيد الله (2).

كان لكل هذا وقع الصدمة على عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية، فجمع جموعه وجيَّش جيوشه; ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاظم قوَّة الخارجين عليه، فالتقى الفريقان من العربوالبربر عند وادي شليف، وكانت الهزيمة المنكرة للعرب; فقد قُتِلَ فيها أشرافهم وفرسانهم وأبطالهم; لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك سنة 123هـ=742م (3).

بلغت أخبار الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فغضب غضبته الشهيرة; وقال: «والله! لأغضبنَّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنَّ لهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي(4) .فعزل هشامُ بن عبد الملك عبيدَ الله بن الحبحاب، واستقدمه في جمادى الآخرة سنة 123هـ، وبعث كلثوم بن عياض القُشَيْرِيّ على رأس جيش بلغ ثلاثين ألفًا، وعَهِد له بولاية إفريقية وضَبْط أمورها، وجعل معه ابن أخيه بَلْج بن بشر القُشَيْرِيّ، وثعلبة بن سلامة العَامِلِيّ (5) واستعدَّ الجيشان العربي بقيادة كلثوم بن عياض والبربري بقيادة خالد بن حميد الزَّنَاتِيّ، واقتتلوا قتالاً شديدًا، لكن دارت الدائرة على العرب، وقُتِلَ قائدهم كلثوم بن عياض، واستطاع بَلْج بن بشر أن ينجو بنفسه وبعضًا من جنده، وتحصَّنوا بمدينة سَبْتَة، وفرض البربر الحصار على بَلْج

1أنظر : العبر ، 153/6.

2 ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ، 237/1، وابن عذاري: البيان المغرب ، 52/1.

3ابن عبدالحكم : مصدر سابق ، 237/1.

4 ابن عذاري: البيان المغرب ، 54/1.

5 ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ، 239/1.

ومَنْ معه لمدَّة سنة كاملة 123، 124هـ، وكانوا طوال هذا العام يستغيثون بعبد الملك بن قَطَن والي الأندلس، ولكن بلا مجيب [1].

بايع "ميسرة" لنفسه بالخلافة، داعياً إلى نحلته من الخارجيّة على مذهب الصفريّة، ثمّ ساءت سيرته، فنقم عليه البربر، بسبب ما جاء به، فقتلوه وقدّموا على أنفسهم "خالد بن حميد الزناتيّ".

انتقلت أخبار هذه الثورة البربرية الخارجية من المغرب إلى الأندلس ، وقد يكون السبب الرئيس لهذه الثورة هو ما اتسمت به الدولة الأموية من الاعتزاز بالعنصر العربي واحتقار الأجناس الأخرى. ولكن الأرجحأن ثورة بربر الأندلس كانت امتداداً لثورتهم في شمال إفريقيا. وكانت مبادئ الخوارج قد انتشرت في البلاد وصادفت هوى نفوس البربر لما كانت تدعو إليه من مساواة بين العرب وغيرهم، وقد تزعم هذه الحركة البربرية الخارجية في إفريقية، ميسرة المعروف بالحقير، وألهبت انتصاراته على العرب حماسة بربر الأندلس.

وبعد مقتل ميسرة ولي زعامة بربر إفريقية خالد بن حُميد الزناتي الذي أوقع بالعرب هزيمة ساحقة في الغزوة المدعوة "غزوة الأشراف" سنة 741م في وادي شلف، فتجمع بربر الأندلس وترك المقيمون في أقصى الشمال الغربي مواطنهم وانحدروا إلى الجنوب وهم يقتلون من في طريقهم من العرب أو يلجئونهم إلى الفرار. ولما رأى عبد الملك بن قطن تأزم موقف العرب، سمح للعرب الشاميين الذين كانوا محصورين في سبتة بقيادة بلج بن بشر القشيري في الجواز إلى الأندلس حتى يستعين بهم في قتال البربر. وأثبت هؤلاء العرب كفاءتهم وفاعليتهم إذ ألحقوا بجموع البربر ثلاث هزائم متوالية في شذونة وفي منطقة قرطبة وأخيراً قرب

1 المقري: نفح الطيب ، 3/20، 21.

طليطلة في معركة وادي سليط، ومكنهم ذلك من المناداة بقائدهم بلج عاملاً على الأندلس(1).

obeikan.com

1 مجهول: أخبار مجموعة ، ص42، 43، ; وانظر : ابن عذاري: البيان المغرب ، 2/30، 31 ; حسين مؤنس: فجر الأندلس ، ص174، 176.

obeikan.com

المبحث الثانى : التحالف بين الفاطميين وشيعة الأندلس للإطاحة بالحكم السنى :

لم يكتف الفاطميون بزرع العيون والجواسيس في الاندلس لنقل أخبارها كما فصلنا بالفصل الأول من هذه الدراسة ، ولكنهم أقبلوا على خطوة جريئه مباشرة إذ حاولوا قلب نظام الحكم في الأندلس والتخلص من خلافة عبد الرحمن الناصر كلية عن طريق الأمير أحمد بن اسحاق قائد الفرسان في جيش عبد الرحمن الناصر، ويذكر دوزي[1] أسباب انقلاب قائد الفرسان على الناصر بتطلع قائد الفرسان إلى ولاية العهد، وإرساله كتاباً للناصر يفصح فيه عن ذلك فما كان من الناصر إلا أن أرسل إليه كتاباً يوبخه فيه ويذكره بأسرتة الوضيعه ويسفه من أحلامه بقوله : " أما بعد فإنا كنا نرى الاستحماد إليك استصلاحا لك، فأبى الطبع الغريزي إلا ما استحكم منه فيك إلا أن استحوذ عليك ... فالفقر يصلحك، والغناء يطغيك إذ لم تكن عرفته ولا تعودته ... أو ليس أبوك كان فارساً من فرسان ابن حجاج أخسهم مالاً عنده وأنت يومئذ نخاس الحمير بإشبيلية، فأقبلتم إلينا فآويناكم ، ونصرناكم، وشرفناك ومولناك واستوزرنا أباك، وقلدناك أعنة الخيل أجمع وفوضنا إليك أمر ثغرنا الأعظم فتهاونت بالتنفير لنا وقلة المبالاة بنا ثم مع هذا الترشح للخلافة .... فأى حسب أو نسب وفيكم القائل :

أنتم خثار الخثـــار	**وليس خز كخـيش**
ان كنتموا من قريش	**تـزوجوا من قريش**
أو كنتم قبط مـــصر	**فذا التعاطي لأيـش ؟**

أليست أمك حمدون الساحرة ، وأبوك المجذوم ، وجدك بواب حوثرة بن عباس يفتل الحبال في الطوانة ، ويخيط الحلفاء على باب داره؟ فلعنك الله ولعن من أنشبنا في الاستخدام بك، فيا مأبون ويا مجذوم ويا ابن الكلب والكلبة ... أقبل صاغراً"[2].

---

(1)دوزي: المسلمون في الأندلس ، 2/33.

(2)مجهول : أخبار مجموعه،ص138-139; دوزي : مرجع سابق، 2/33.

وبتفحص خطاب الناصر إلى قائد فرسانه أحمد بن اسحاق يتضح لنا مدى غضب الناصر من قائد فرسانه ووصفه له بأنه وضيع وخائن ائتمنه الناصر على الثغور الشمالية وولاه عليها ولكنه لم يكن موضع ثقة ، كما يتضح من الخطاب تأكيد الناصر على أن قائد فرسانه ينتمي لأسره وضيعه ذكر الناصر أوصافها، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك لأن هذا القائد كان يمت إلى الناصر بصلة قرابة ولعل هذه القرابة هي التي جعلته يتطلع لولاية العهد، كما جعلت الناصر لا يتسرع في قتله إلا بعد اتصاله بالفاطميين في المغرب [1].

وبعد الخطاب السابق عزل الناصر قائد فرسانه فما كان منه إلا أن دبر مؤامرة كبيرة للخليفة حيث رسم خطة محكمة يسلم بمقتضاها الأندلس إلى الفاطميين الذين اتصل ببلاطهم، ولعل هذه المؤامرة هي التي عبر عنها المسعودي بقوله عن قائد الفرسان حين قبض عليه عبد الرحمن الناصر : " فقبض عليه عبد الرحمن لأمر منه استحق عليه في الشريعة العقوبة فقتله عبد الرحمن " [2] ، وقد ساعد قائد الفرسان في هذ المؤامره أخوه "أمية ابن اسحاق" فاستولى على شنترين ، وجاهر بالعصيان وكاتب ملك ليون وعرض عليه العمل معه موضحا له نواحي الضعف في الأندلس وكيفية دخولها والتغلب عليها[3]،ولكن هذه المؤامرة لم تكتمل خيوطها ، فعندما خرج أمية ذات يوم عن شنترين للصيد قام أحد قواده ويدعى أحمد بن محمد بن العباس[4] ، وأعاد اليها سلطان الخليفة، وعندئذ فر أمية إلى راميرو،

---

(1)ذكر ذلك أستاذنا المغفور له العلامة حسن حبشي ، ولم يذكر مدى القرابة بين الناصر وقائد فرسانه ، أنظر : دوزي: نفسه، ص235.

(2)المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق أسعد داغر، دار الهجرة، قم، ايران، 1409هـ ، 9/2.

(3)دوزي : مرجع سابق،33/2.

(4)أحمد بن محمد بن العباس : كان يشغل منصب قائد القوات المرابطة قرب سرقسطة، وكان الخليفة عبدالرحمن الناصر قد بعثه لمحاربة نصارى برشلونة الذين حاولوا غزو البلاد الإسلامية، ولكنه هزمهم واستولى على عتادهم وأسلحتهم وذلك في شوال سنة 324هـ ، ينظر، دوزي: مرجع سابق: ص235/2،هامش رقم 60.

بينما ظل أحمد ابن اسحاق يدبر المكائد والمؤامرات ضد الأمويين في الأندلس، مستعينا في ذلك بالفاطميين أعداء الأمويين ، ولكن الناصر كشف خيوط المؤامرة والقى القبض على أحمد بن اسحاق وحاكمه ورماه بتهمة التشيع ثم قتله [1].

ولعل محاولة الفاطميين القيام بقلب نظام الحكم فى الأندلس ، وتحويلها من المذهب السنى إلى الشيعى تتأكد أكثر فأكثر من خلال التنسيق بين الفاطميين وبين ابن حفصون الذى قام بحركة تعد من أخطر الحركات ضد الحكم الأموى فى الأندلس ، وهو ما سبق وأن أشرنا إليه آنفا .

لذا كان على عبدالرحمن الناصر أن يواجه الخطر الفاطمى لا سيما وأن الفاطميين أقدموا على خطوات أكثر خطورة لعبدالرحمن الناصر ، إذ شعر بأنهم يعتدون على الأمن القومى للأندلس من خلال أعمالهم التالية :

أولا :نشطت دعوتهم في تلك الفترة، فبسطوا سلطانهم على المغرب وغيره، وسيطروا على تاهرت في سنة 314هـ.

ثانيا :تقدم الفاطميون - المتحكمون في المغرب – فى العام 318هـ بأسطول بحري هاجم أسطول الأمويين في مدينة "المرية" جنوب شرق الأندلس وكانت قاعدة للأسطول الأموي وفيها الميناء الرئيسي، وأحدثوا دماراً هائلاً في ذلك الأسطول.

كان لتصرفات الفاطميين السابقة أثر كبير على الناصر كى يواجه خطرهم ويقضى على محاولاتهم من خلال الإجراءات التالية :

أولا : إعلان عبدالرحمن الناصر نفسه أمير المؤمنين فى العام 316هـ ، وهو ما اعتبره الفاطميون تعديا على حق من حقوقهم ، وأنه وجب عليهم مقاتلة الناصر لانتحاله صفة أمير المؤمنين التى لا حق له فيها [1].

(1)المرجع السابق، نفس الجزء والصفحه.

ثانيا : السيطرة على الثغور المغربية المطلة على المضيق : أرسل الناصرفي سنة (319هـ) أسطولاً قويًّا حشد له ما استطاع من رجال وعتاد، وأرسله إلى سَبْتَة فاستولى عليها من يد ولاتها بني عصام حلفاء العبيديين (الفاطميين)، ثم سارع بتحصينها، وإمدادها بالجند والسلاح، والقادة الأكفاء; لأنه يعلم جيدًا أن العبيديين لن يركنوا إلى الراحة والدعة، ولن يتخلَّوْا عن سَبْتَة بسهولة; ليس لأنها مفتاح الأندلس فحسب، ولكن لأنها إن بقيت في يد الناصر، فإنها ستُهَدِّد دولتهم الناشئة التي لم تستقرّ بعدُ (2) . كذلك راسل عبدالرحمن الناصر الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي حاكم طَنْجَة لينزل له عن طَنْجَة; لتكتمل بذلك سيطرته على رأس العدوة، فرفض ابن أبي العيش ذلك، فحاصره أسطول الأندلس، وضيَّق عليه حتى اضطره إلى التسليم (3).

ثالثا : اصطناع ملوك وأمراء القبائل فى المغرب : ففي سنة (319هـ) -أيضًا- أرسل إليه موسى بنُ أبي العافية أمير مِكْنَاسَة يحالفه ويدخل في طاعته، ويَعِدُه بالدعوة له في المغرب، وبتقريب أهل المغرب وزعمائهم منه، فتَقَبَّله عبد الرحمن أحسن قبول، وأمدَّه بالمال، وساعده في حروبه في المغرب; ليُقَوِّيَ مركزه (4) وبادر على إثر ذلك زعماء الأمازيغ (البربر) من الأدارسة وزناتة إلى طاعة عبد الرحمن الناصر والدعاء له على المنابر، وامتدَّ نفوذه إلى تاهرت، وفاس.

وفي سنة (323هـ) أرسل القائم العبيدي جيشًا بقيادة ميسور الصقلبي إلى موسى بن أبي العافية، ودارت بينهما عدة معارك انهزم فيها موسى بن أبي العافية، وهرب إلى الصحراء، ثم

1ابن حيون : المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقى وآخرون ، دار الغرب الإسلامى ، تونس ، 230/1-234.

2البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، نشر دي سلان ، الجزائر، 1857م، 89،104 ; وانظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، 307/3.

3الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 253/1.

4 ابن عذاري: البيان المغرب، 204/2.

استنجد بالناصر فأنجده، وهُزم العبيديون، وعاد لموسى بن أبي العافية ملكه في المغرب وقوي أمره (1)، كما قوي نفوذ الناصر لدين الله هناك; حتى إن مَنْ ثاروا على الدولة العبيدية في المغرب كانوا يُراسلونه ويعترفون له بأنه الأحق بالولاية، وكان عبد الرحمن الناصر يصلهم ويُحْسِنُ إليهم (2).

رابعا : قيام الأسطول الأندلسى بهجمات ضد أملاك الفاطميين : ففي عام 344 هـ، هاجمت بعض سفن الفاطميين شواطئ ألمرية، وعاثت فيها فسادا، فأمر عبد الرحمن الناصر أمير البحر غالب بالتحرك في أسطول إلى شواطئ إفريقية ومهاجمتها ردا على هجوم الفاطميين.(3).

وفي عام 347 هـ، وجه عبد الرحمن أسطولا آخرا بقيادة أحمد بن يعلى لمهاجمة شواطئ إفريقية، فرد الفاطميون على هذا الهجوم بجيش ضخم بقيادة جوهر الصقلي تسانده قبائل صنهاجة البربريةاكتسح شمال المغرب إلى المحيط. الأمر الذى أثار قلق عبد الرحمن الناصر ، فأمر أساطيله بأن تكون على أهبة الاستعداد لصد أي محاولة للعبور إلى الأندلس، كما أمر أحد أساطيله بالتحرك إلى سبتة، ليكون كخط دفاع أول في حالة أي هجوم، وقد لبث ذاك الأسطول في سبتة إلى أن عاد الفاطميون أدراجهم (4).

خامسا :أمر عبدالرحمن الناصر سنة 344هـ ولاته وعماله بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس (5).

1ابن خلدون : العبر ، 136/1.

2 ابن عذاري: البيان المغرب، 213/2.

3أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص206،207.

4مجهول : مفاخر البربر ، تحقيق عبدالقادر بوباية ، دار أبى رقراق ، الرباط ، ط1 ، 2005م ، ص6 ; وانظر : ابن عذارى : البيان المغرب ، 232/2،233.

5ابن عذارى : البيان المغرب ، 330/2.

سادسا : مساندة عبدالرحمن الناصر للثورات التى قامت ضد الفاطميين بالمغرب : ومنها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي ، وقد ساعده الناصر عسكرياً وماليا . وقام هو بالدعاء للخليفة الناصر والاعتراف به مثلما فعل عمر بن حفصون مع الخليفة الفاطمي من قبل أثناء خروجه على الأمويين . وقد كانت بين الناصر وبين الزناتي رسائل ذكرت ضمن أحاديث سنة 333هـ ذكرها ابن عذاري تبين مدى تواصلهم وتعاونهم على عدو مشترك[1].

الجدير بالذكر أن الصلة لم تنقطع بين الأندلس ومصر وشمال افريقية عقب سقوط الدولة الأموية بالأندلس ، حيث كانت الدولة الفاطمية الإسماعيلية لا تزال تحكم فى مصر، ومن ثمفإن هذه الصلة زادت وقويت بسقوط الدولة الأموية وقيام الدعوة العلوية في بعض جهات الأندلس، وقد تبودلت بعض الرسائل بين علي بن مجاهد العامري صاحب دانية «Denia» والخليفة الفاطمي المستنصر بالله في سنة 452/ 1060، وقد قام بكتابتها من جانب علي بن مجاهد الأديب المشهور أبو الأصبغ عبد العزيز ابن أرقم الوادي آشى[2]، كما هاجر الكثيرون من الأدباء من شمال إفريقية ومصر إلى الأندلس، وقد خصص ابن بسام الشنتريني لهؤلاء الغرباء جزءاً من القسم الرابع من كتابه «الذخيرة».

1المصدر نفسه ، 2/319-322.

2ابن الأبار: التكملة ص 622 ، ترجمة 1735.

المبحث الثالث : الدول الشيعية بالأندلس :

أولا : دولة الحموديين :

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كانت هذه الثورات الشيعية التى أشرنا إليها آنفا على ضراوتها وحدة بأسها لم تفلح في اقتلاع الحكم -الاموي في الاندلس كما تم ذلك لثورات التشيع في المشرق من اقتلاع الحكم الاموي سابقا باعتماد العباسين عليهم في ثورتهم ضد الأمويين , إلا أن أحد تلك الثورات زعزعت استقرار الحكم الأموي وهيبته في الأندلس بل وكانت سبباً في زوالها ودخول الأندلس عصر ملوك الطوائف!! وذلك حين قام علي بن حمّود من الأسرة الإدريسيةبالاتجاه إليه بعد مقتل هشام المؤيد من عدوة المغرب المحسوب آنذاك سياسياً على الأندلس .

و يذكر ابن الخطيب : " أن بعض العامريين الموالي , و الصنائع الهاشميين أرسلوا إلى علي بن حمّود أمير سبتة وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد و بخطه عهد فيها بالأمر إلى علي بن حمود , ثم إنهم تعهدوا له بتذليل الصعاب و هونوا له أمر الاستيلاء على الخلافة " (1).

زحف علي بن حمّود نحو المرية واجتمع مع خيران العامري وغيره من الفتية العامريين , ومن هناك زحف بجيوشه نحو قرطبة بينما تأهب اخوه القاسم لتقديم المساعدات إليه عند الضرورة و قد عرف سليمان المستعين بتحالف خيران العامري مع علي بن حمّود , و علم بمسير جنودهما إليه فعظم عليه الأمر , و خرج بمن تبقى من رجاله للقاء جيوش ابن حمّود واشتبك الفريقان في محرم سنة 407هـ , و لكن المعركة انتهت بأسر سليمان وهزيمته, وهكذا دخل علي بن حمّود قصر قرطبة في 22 محرم ، وأمر بإحضار سليمان المستعين فضرب عنقه و قد بويع لعلي بن حمّود في باب السدة من قصر قرطبة ، وذلك في 23 محرم سنة 407هـ وتلقب بالناصر لدين الله ثم المأمون ثم المتوكل, و تملك بنو حمّود الأدارسة- قرطبة كأصحاب مذهب شيعي، وشرعوا في محو تاريخ بني أمية الذي حافظ على وجوده في ذاكرة الأندلسيين

1ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص 141 .

باعتباره زمن القوة والحاضرة حين توالت النكسات السياسية بعد الفتنة البربرية التي أسست لحكم ملوك الطوائف !!

وقد كان من المنتظر أن تزدهر الثقافة الشيعية في الأندلس في ظل الدولة الحمودية حيث كانت تتمتع بحماية السلطان، وهذا يدعونا إلى النظر في تشيع الحموديين: ما مداه؟ وأيَّ الفرق كانوا يتبعون؟ الواقع أن الحموديين كانوا شيعة معتدلين إلى حد بعيد، فلم تتخذ دولتهم طابعاً دينياً قوياً، ولم يكن لهم مذهب كامل واضح المعالم، ولا فلسفة تقوم على أسس ثابتة، ولا فقه خاص يميزهم عن غيرهم، كما نجد ذلك في الدولة الفاطمية في مصر، أو البويهية في إيران، حقيقةً كانوا يدينون ببعض المبادئ العامة التي قام عليها التشيع، ولكنهم لم يأخذوا من ذلك إلا بقدر ما يحقق لهم مأرباً سياسياً: فهم يدينون كما يدين سائر الشيعة بأنه «لا تتم ديانة إلا بإمامة[1]» وأنه يجب على كل مسلم أن يعرف إمام زمانه، وأنهم الوحيدون الجديرون بالخلافة لقرابتهم من النبي، وأن من سواهم ممن ولى الخلافة معتدٍ غاضب. ولكنا لا نراهم أخذوا بأكثر من ذلك، بل إنهم كانوا حتى في ذلك معتدلين كثيراً، ويشير ابن حزم إلى عدمجرأتهم أول الأمر على التسمى بالخلافة[2]، وحتى على بن حمود أولَ خلفائهم لم يستند في دعواه على قرابته من النبي بقدر ما اعتمد على حجته في أن هشاماً المؤيد الأموي عهد إليه بالطلب بدمه، وبهذا أخرج كتاباً للناس أول ولايته نسبه إلى هشام، وفيه يستغيث من سليمان بن الحكم المستعين، ويولى ابن حمود أمر الأخذ بثأره، وقد رأى أنه بهذا يكسب دعواه مظهراً من الشرعية والحق[3]، وبهذا الكتاب مدحه الشعراء المتشعيون، يقول أبو بكر عبادة بن ماء السماء:

فكل من ادعى معك المعالى كذوب مثلما كذب الدَّعِيُّ

1ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ق 1 مجلد 2/ 141 وكذلك 458.

2ابن حزم: نقط العروس ، ص 59.

3ابن عذارى: البيان المغرب ، 3/ 116

أبى لك أن تهاض عُلاك عهدٌ هشاميّ وجدُّك هاشميّ[1]

ومن هذا يبين لنا مدى اعتدال الحموديين في تشيعهم، رغم التأكيد على أن الخليفة الحمودى الأول على بن حمود وكذا الثاني القاسم بن حمود كانا يدينان بمبادئ شيعية، إلا أنهما لم يحاولا مطلقاً فرضها على أحد في دولتهما[2].

وبالرغم من ذلك فقد احتفظ لنا ابن بسام برسالة طريفة بقلم أبي جعفر بن عباس وزير زهير الصقلبى في المرية، وتتضمن هذه الرسالة طائفة من التهم التي كان يُرمى بها الحموديون في عقيدتهم وشريعتهم باعتبارهم شيعة، يقول ابن عباس : " والكلام عن أحد خلفاء بن حمود" : مُلحِدٌ رِجْسٌ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يؤاخى إلا كلَّ منافق كافر، يسب الصحابة والأبرار، ويُكَذِّبُ بالجنة والنار، ولا يرجو حساباً ولا يحذر عقاباً، ادعى خلافة الله فهي منه تضج... يأخذ الرشوة على بيت الله الحرام، ويستخف بشرائع الإسلام... إلى أن يقول: بئس الشيعة وقودُ جهنم وحطبُها، وعليهم يزداد حنقها وغضبُها»[3] وواضح أنه لا يمكن الثقة في صحة هذه التهم لصدورها عن عدو متحامل، ولست أظن ما يذكره من سب الحموديين للصحابة صحيحاً، وإن كان شيئاً مألوفاً عند كثير من فرق الشيعة المتطرفة.

وعلى الرغم من أن على بن حمود أول خليفة علوي كان يفهم العربية بكثير من الصعوبة، إلا أنه كان «يصغى إلى الأمداح ويثيب عليها»[4]، ولعله فطن إلى مدى خطر الشعر في توجيه السياسية، وقد كان من تبعه من الحموديين مثله أو أكثر منه تشجيعاً للأدب وإغداقاً

1ابن بسام: الذخيرة القسم الأول ، 2/ 10

2الحميدى: جذوة المقتبس ، ص 22 ; وانظر : عبد الواحد المراكشى: المعجب ، ص 50 ; هنري بيريس : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف، ترجمة الطاهر مكى، دار المعارف، القاهرة ، ط1، 1408هـ/1988م ، ص89 وما بعدها.

3ابن بسام: نفس المرجع القسم الأول. 2/ 164، 165

4المقرى: نفح الطيب 2/ 28.

على الشعراء، وهكذا نجد في بلاطهم عدداً كبيراً من الأدباء والشعراء الذين تشيعوا لهم وأبرزوا التشيع منهم :

أولا : ابن دراج القسطلى

يعد ابن دَرَّاج القَسْطَلِّيُّ (ت421هـ/1030م) أفضل الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين، ولم يبق لنا من شعره الشيعي إلا قصيدةٌ هاشميةٌ مدح بها على بن حمود، واحتفظ لنا ابن بسام بأكثرها[1]، مفضلا إياها على هاشميات كُثَيِّر عزة والكُمَيْتِ بن زيد والسَّيِّد الحميرى ودِعْبل، وفي هذه القصيدة يحتج ابن دراج لإمامة الحموديين ويقول إنها ثابتة بنص القرآن، وبدليل العقل، وبحكم حقهم في ميراث النبي:

فأنتم هداة حياة ومـــــوت وأنتم أئمة فعـــــل وقيلِ
وسادات من حل جنات عدن جميع شبابهم والكهـــــول
وأنتم خلائف دنيـــا ودينٍ بحكم الكتاب وحكم العقول

وابن دراج أول من ذكر مناقب أهل البيت في أسلوب حزين مؤثر، كان نواة للقصائد الأندلسية التي تناولت مراثى أهل البيت من بعد:

ووالدكم خاتـــم الأنبياء لكم منه مجدُ حَفِيٍّ كفيـــل
تلذ بحملكم عـــاتقاه على حمله كلَّ عِبْءٍ ثقيـــل
ورحبٌ على ضمكم صدره إذا ضاق صدر أب عن سليل
ويطرقه الوحى وهناً وأنتم ضجيعاه بين يدي جبرئيـــل

والحقيقة أن هذه القصيدة تعتبر من خير ما أنتجه الأدب الشيعي، وقد بلغت في وقتها من الانتشار حداً بعيداً، واهتم بها رواة الشعر وأفردوها بالدراسة والحفظ[2].

1الذخيرة: القسم الأول 1/ 70. 73.

2ابن الأبار: التكملة ، ترجمة 1695.

ولكن، هل كان ابن دراج مخلصاً حقاً في هذا التشيع؟ هذا ما طرحه المستشرق الفرنسي «بلاشير» في بحثه الذي أفرده عن ابن دراج، فقال إنه من المبالغة أن نظن به هذا الإخلاص، وإن الدليل على ذلك تأييده للحزب الأموي الذي تزعمه خيران العامرى، والذي ترك الدعوة للحموديين سنة 408/ 1017، ودعا للخليفة الأموي عبد الرحمن المرتضى[1]. وهذا صحيح، فإن هذا الشاعر الذي دافع عن حق العلويين في الإمامة لا نلبث أن نراه بمثل هذه الحماسة يدافع عن حق الأمويين فيها، ومن قوله في سليمان بن الحكم المستعين الأموي:

وجَدَّد للإسلام سور خـــــلافة عليها من الرحمن نور وبرهـــــانُ
قريب النبي المصطفى وابــن عمه ووارث ما شادت قريش وعدنان
وما ساقت الشورى وأوجبه التقى وأورث ذو النورين عَمُّك عثــمان
وما حكمت فيه السيوف وحازه إليك أبو الأملاك جدك مـــــروان

على أنه ينبغي ألا نندهش لهذا التقلب السريع، فقد كان ابن دراج من هؤلاء الشعراء التعسين الذين جنت عليهم «الفتنة» القرطبية[2]: فراحوا يستجدون بشعرهم كل ثائر، دائرين مع الريح حيث دارت، باكين مع ذلك مجد الأندلس الذي عصف به سقوط الخلافة الأموية، وهكذا كان شعر القسطلى الهاشمي قليل النصيب من الصدق والإخلاص، على رغم إحكام صنعته واهتمامه الفائق بالأسلوب[3].

---

1 Blachère: La vie et l'œuvre du poète-épistolier andalou Ibn Darrag al Kastalli Hesperis, t. XVI 1933 (p. 99-121) p. 111

2 García Gómez: Algunas precisiones sobre la ruina de Córdoba Omeya, Al-*Andalus*, vol. XII 1947 p. 273.

3 Blachère: op. cit. 118.

ثانيا : عبادة من ماء السماء

أبو بكر عبادة بن ماء السماء (توفى بعد 421/ 1030)، وقد أشار المؤرخون إلى أنه كان يتشيع، وافتخر هو بذلك في شعره فقال من قصيدة يمدح بها يحيى المعتلى الحمودى:

فها أنذا يابن النبوة نافـــــث من القول أريا غير ما ينفث الصِّلُّ
وعندى صريح من ولائك معرق تَشَيُّعُهُ محض وبيعته بتـــــلُ
ووالى أَبِى قَيْسٌ أباك عـــلى العلى فخيم في قلب ابن هند له غـــلُّ[1].

وهو يشير في البيت الأخير إلى عراقته في التشيع، إذ أن جده قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى كان من أكبر شيعة علي بن أبي طالب، وهو الذي ولى له مصر، وشعر معاوية بخطره حتى استطاع التخلص منه بأن بعث إليه من سمه[2]، وقد نقل ابن بسام بعض شعر عبادة، منه قصيدة قالها في رثاء علي بن حمود ومدح أخيه القاسم حين ولى الخلافة بعده، ويظهر في هذه القصيدة ما هو مألوف في مدح الشيعة من إفراط ومبالغة وإذابة لشخصية الشاعر في «الإمام»، حتى إن نفوس أشياعه وأموالهم إنما هي من بعض فضله:

وحكمة خضعت هام الملوك بها عزاً فلا حُرَّ موجـــود بواديه
مؤيد جاءت الدنيـــــا إلى يده عفواً ولبته مـــن قرب أمانيه
جلت أياديه حتى إن أنفسنـــا وما ملكناه جزء من أياديه[3]

ثالثا : ابن الحناط

واختص بالحموديين أيضاً أبو عبد الله محمد بن سليمان القرطبي المعروف بابن الحَنَّاط الكفيف (ت 437/ 1045)، وكان قد نشأ في قرطبة نشأة أعانته على أن بلغ الغاية في

1 ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول 2/ 9.
2ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ، 346.
3ابن بسام: الذخيرة القسم الأول. 2/ 6.

العلوم، ولكن غلب عليه علم المنطق حتى اتهم في دينه، واضطر إلى الالتجاء إلى الجزيرة الخضراء، فعاش هناك في ظل محمد المهدى بن القاسم بن حمود (تولى من 428/ 1036 إلى 440/ 1048) (1)، وله قصيدة يصف فيها خروجه من قرطبة ورحلته إلى الجزيرة يقول في أولها:

تفرغت عن شغل العداوة والظعن وصرت إلى در الإقــامة والأمنِ
أمقتولة الأجفان من دمع حــزنها أفيقى فإنى قد أفقــت من الحزن
وما عن قِلِىً فارقت تربة أرضــكم ولكنني أشفقت فيها من الدفن (2).

وتظهر في شعره بعض التعابير الشيعية مثل «الوصى»:

فبوأت رحلى ظل أروع مــاجد يقول بلا خلف ويعطى بلا منٍّ
إمام «وصى» المصطفى وابن عمه أبوه فتم المــجد بين أب وابنِ

كما استخدم ابن الحناط القرطبى كلمة فاطمى فى إحدى قصائده واصفاً بها الخليفة الحمودى (3) ، وهو ما يؤكد النزعة الشيعية لديه . إذ كان يستلهم مبادىء الشيعة فى سلوكه الدينى والسياسى .

ولابن الحناط القرطبى الكفيف قصيدة في مدح القاسم بن حمود، يسجل فيها هزيمة عبد الرحمن المرتضى في سنة 409/ 1018 على أسوار غرناطة وكان القاسم قد احتفل بذلك اليوم في قرطبة، وأنشده ابن الحناط يومئذ:

لك الله خيرانٌ مضى لســـــبيله وأصبح أمر الله في ابن رسولهِ
وفُرِّقَ جمعُ الكفر واجتمع الورى على ابن حبيب الله بعد خليله(4).

1ابن سعيد : المغرب ، 121/1.

2نفسه ، 122/1.

3 هنرى بيريس : الشعر الأندلسى ، ص91.

4ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول 1/ 396 ; وانظر : ابن سعيد : المغرب ، 123/1 ; وقد نسب المقرى هذه القصيدة خطأً إلى أبي بكر عبادة بن ماء السماء . أنظر : المقرى: نفح الطيب 2/ 31.

وتظهر في هذه القصيدة العصبية البربرية التي كانت سند الدعوة العلوية، فيقول مُصوِّراً هزيمة خيران:

ولما دعا الشيطان في الخيل حزبه وأقبل حزب الله فوق خيـــوله
كتائبُ من صِنهاجةٍ وزنـــــاتةٍ تضايق في عرض الفضاء وطوله
تقدم خيران إليها بزعـــــــمه ليدرك ما قد فاته من ذحـــوله
فأحجم تحت النقع والخيل تَدَّعى كما ازدلف الليث الهزبر لغـــيله

رابعا : ابن مقانا الأشبونى

وأهم شعراء الحموديين بعد ذلك أبو زيد إدريس بن مقانا الأشبوني، وهو مشهور بقصيدته النونية في مدح إدريس بن يحيى العالى (تولى من 434هـ/ 1042م إلى 438هـ/1046م)، وفي هذه القصيدة نرى التشيع يبلغ غايته من التطرف والمبالغة، فهو يهتم بإبراز حق العلويين المقدس، وشعره واضح التأثر بشعر ابن هاني وذلك في ناحيتين: أما الأولى فهي اهتمامه بالوقع الموسيقي للألفاظ، وقد أعان ابنَ مقانا على التوفيق في هذه الناحية البحر الذي نظم فيه قصيدته والقافية التي تنتهي بها أبياتها، وأما الثانية فهي ما أسبغه على ممدوحه من صفات جعلته شبه إله: بيده العسر واليسر، بل هو يختلف عن سائر البشر: أصله غير أصلهم وطينته غير طينتهم:

وكأن الشمس لما أشرقـــت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيي بن على بن حمود أمـــــير المؤمنين
خط بالمسك على أبـــــوابه ادخلوها بســـــلام آمنين
وينادي الجود في آفـــــاقه يمموا قصر أمير المسلمين
ملك ذو هيبة لـــــــكنه خاشع لله رب العـــالمين
وإذا ما رفعـــــت رايته خفقت بين جناحي جبرئين

وإذا أشكل خطب معضلصدع الشك بمصباح اليقين

....

يا بني أحمد يا خير الورى لأبيكم كان وفد المســـــلمينْ

نزل الوحى عليه فاحتبى في الدجى فوقهم الروح الأمين

خلقوا من ماء عدل وتقى وجميع الناس من مـــاء وطين

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العـــــالمين[1].

قال الحجارى : " أنشده هذه القصيدة خلف حجاب على عادتهم فى ذلك ، فلما بلغ إلى قوله :

كتب الجود على أبوابـــــه ادخلوها بســـلام آمنين

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين .

أمر برفع الحجاب ، حتى نظر إليه ، وأفرغ سابغ إحسانه عليه [2].

وقد مدح الحموديين غير هؤلاء من الشعراء; منهم أبو عبد الله محمد بن السَرَّاج، وإدريس بن اليمان اليابسى، وغانم بن الوليد الذى وصف إدريس العلى بالله فى رسالة له وصفاً يؤكد نزعته الشيعية فقال : " الإمام الهاشمى ، والملك الفاطمى ، والفرع العلوى"[3].

وما ذهب إليه البعض [4] من أن ابن شهيد كان أحد الشعراء الذين نزعوا منزعاً شيعيا معللاً ذلك بتوجهه من قرطبة إلى مالقة لمدح يحيى المعتلى بن علي بن حمود (ت421هـ/1030م) فلا يمكن قبوله لأمور :

أولا : أنه أحد من انتقد البربر الشيعة وفتنتهم البربرية .

1المقرى: نفح الطيب ، 1/ 410 ; وانظر : هنرى بيريس : الشعر الأندلسى ، ص91.

2 نقلا عن : ابن سعيد : المغرب ، 414/1.

3هنرى بيريس : الشعر الأندلسى ، ص91 هامش 22.

4محمود مكى : التشيع ، ص141.

ثانيا : أنه كان صاحب نزعة أموية صرفة حيث ولى الوزارة للمستظهر ، واصطفاه هشام المعتد بالله آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس (1).

ثالثا : أن ولاءه للدولة الأموية السنية ظل كما هو حتى سقوط الخلافة ، ومن ثم رأيناه يرثى آخر الخلفاء بقصيدة تؤكد هذا الولاء الذى لم يتزعزع ، وإن مدح أحد أفراد بنى حمود ببعض الشعر (2).

رابعا : أن الحميدى لم يصفه ببدعة ولا تشيع وهو يترجم له بل ختم ترجمته بقوله : " ومات فى ذهنه وهو يدعو الله عز وجل ، ويشهد شهادة التوحيد والإسلام ..." (3).

وقد أرجع أحد الباحثين المحدثين أسباب ضعف التشيع في تلك الفترةإلى أسباب منها:

1. أن الدولة الحمودية كانت منذ نشأتها محاطة بجو من الكراهية الشديدة من جانب الأندلسيين الذين كان المذهب السني قد تأصل فيهم منذ الإمارة الأموية، فكان على الحموديين أن يجاروا هذا الجو، فلم يستطيعوا إلا أن يكونوا معتدلين مسايرين للمذهب السني وهكذا لا نراهم يغيرون شيئاً من النظم الإدارية والقضائية التي كانت موجودة في أيام بني أمية.

2. وكان حكم الحموديين قصيراً تتخلله الثورات والحروب الأهلية، ولم يدع هذا لهم مجالا للاستقرار، وتكوين حكومة قوية تستطيع أن تفرض آراءها ومعتقداتها.

3. وهم أخيراً لم يحكموا كل الأندلس، بل لم تتجاوز دعوتهم قرطبة والجزيرة الخضراء وغرناطة ومالقة تقريباً، وكانت بقية إمارات الأندلس: إما تدين بخلافة دَعِيِّ هشام

1ابن سعيد : المغرب ، 85/1.

2نفسه ، 85/1.

3أنظر : جذوة المقتبس ، ص120 ترجمة 232.

الذي نصبه ابن عباد، أو مستقلة تماماً، أو محالفة للدول النصرانية، وهكذا لم يمكنهم نشر دعوتهم نشراً كافياً لتثبيت دعائمها (1).

ثانيا : دولة بنى زيرى فى غرناطة :

كان بنو زيريمن بين قبائل البربرالتي عبرت إلى الأندلس في فترة سيطرة العامريينعلى الدولة الأموية في الأندلسبعد أن استأذن زعيمهم زاوي بن زيريالحاجب المظفرللعبور إلى الأندلس(2) ، وقد ظلت نزعتهم الشيعية حتى نهاية دولتهم بالأندلس (3).

انتظم الزيريون في جيوش الأندلس في تلك الفترة، إلى أن دخلت الأندلس فترة الفتنةبعد أن خلع محمد المهدي باللهالخليفة هشام المؤيد باللهعام 399 هـ ، وقد أساء المهدي معاملة البربرنكاية في العامريين، وحرّض العامة على الفتك بالبربر،وكان من نتائج ذلك مقتل حباسة بن ماكسن بن زيري ابن أخي زاوي (4).

أثار ذلك بني زيري الذين التفوا مع بقية قبائل البربر حول سليمان المستعين باللهالمطالب بعرش الأندلس،وساعدوه على الوصول إلى عرش الخلافة في شوال سنة 403 هـ،كافأ المستعين بالله قبائل البربر بأن أقطعهم كور في جنوب الأندلس، وكان نصيب بني زيري أن أقطعهم كورة إلبيرة (5)، ولما وجد بنو زيري أن إلبيرة في موقع يصعب الدفاع عنه، فشرعوا في بناء مدينة غرناطة (6).

وقد ساعد بنو زيري علي بن حمودفي الاستيلاء على خلافة قرطبة في المحرم سنة 407 هـ،مما دعا خيران الصقلبيصاحب ألمريةعام 409 هـ، للمناداة بخلافة عبد الرحمن المرتضى،

1محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، ص135،136.

2ابن عذارى : البيان ، 3/ 262،263 ; وانظر : ابن خلدون : العبر ، 1/345.

3البناهي: تاريخ قضاة الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال، دار الكاتب المصرى ، 1948م ، ص91

4ابن عذارى : مصدر سابق ، 3/75،76،112 ; وانظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، 1/513.

5ابن عذارى : البيان ، 3/90،91،113 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص123.

6ابن الخطيب : الإحاطة، 1/514.

وانضم إليه المنذر بن يحيى التجيبيصاحب سرقسطةوعدد من ولاة شرقي الأندلس، وسار جيش المرتضى صوب قرطبةإلا أنهم اقتتلوا أولاً مع قبائل صنهاجةبقيادة زاوي بن زيري، ودارت بينهم معركة استمرت لأيام، انتهت بمقتل المرتضى وفرار خيران والمنذر (1).

قرر زاوي بن زيري في عام 410 هـ العودة إلى المغرب ،واختار شيوخ البربر ابن أخيه حبوس بن ماكسنخلفًا له.(2)، وقد استطاع حبوس ضم قبرةوجيانإلى ملكه،وأتم بناء غرناطة، وأقام علاقات صداقة مع جيرانه من زعماء البربر، ومع زهير الصقلبيصاحب ألمرية. وظل في الحكم حتى عام 428 هـ،حيث خلفه ابنه باديس بن حبوس (3).

حاول زهير الصقلبي حليف حبوس بن ماكسن في شوال 429 همهاجمة غرناطة، إلا أن باديس نجح في إعداد كمين لجيش زهير دمّر فيه جيش ألمرية، وقُتل فيها زهير،وفي عام 431 هـ شارك إلى جانب زعماء البربر في معركتهم مع جيش إسماعيل بن عباد المهاجم لقرمونة، وهزموه في معركة قُتل فيها إسماعيل بن عباد(4).

وفي عام 438 هـ، لجأ إدريس العالي باللهحاكم مالقةالمخلوع لطلب العون من باديس لاستعادة عرشه من ابن عمه محمد بن إدريس المهدي بالله، لكنهما فشلا في خلع المهدي بالله ، وفي عام 449 هـ، استغل تعاقب الحكام الضعفاء على عرش مالقة، فهاجم مالقة واستولى عليها (5).

حاول المعتضد بن عبادضم مالقة في عام 458 هـ فبعث جيشًا بقيادة ولديه جابر والمعتمدلانتزاعها، لكنهما فشلا في هزيمة حاميتها، ثم أنقذ باديس المدينة (6)وفي عام 459

1ابن عذارى : البيان ، 3/125-126 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص124.

2ابن عذارى : البيان ، 3/128 ; وانظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، 1/477.

3ابن عذارى : مصدر سابق ، 3/264 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص126.

4ابن عذارى : مصدر سابق ، 3/169،199-171.

5ابن عذارى : البيان ، 3/217 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص132.

6ابن عذارى : مصدر سابق ، 3/273،274.

هـ، هاجم المعتصم بن صمادحوادي آش، وانتزعها من باديسفسار باديس لقتاله بمعاونة من المأمون بن ذي النونصاحب طليطلةعلى أن يتنازل له عن مدينة بسطة، فاستعاد باديس وادي آش، ثم ضم بياسةمن يد علي بن مجاهد العامري(1) .

ولابد مما ليس منه بد أن نشير إلى قضية مهمة بشأن حكم بنى زيرى ، وهى تقريبهم لليهود لا سيما فى عهد باديس بن حبوس ، وهو ما يؤكد حقيقة التقارب بين الشيعة واليهود ، وإن كانت هناك تفسيرات متعددة ذكرها ثلة من الباحثين بشأن هذا التقارب نذكر منها :

أولا : انعدام ثقة هؤلاء البربر فى أمراء العرب على حد تعبير دوزى (2).

ثانيا : المقدرة الفائقة التي امتاز بها اليهود في معالجة المسائل الاقتصادية على حد تعبير هنرى بيريس (3).

ثالثا : أن الزيريين كانوا يدينون بالدعوة الشيعية، وقد كان بين التشيع واليهودية صلة قديمة، وتأثر الشيعة منذ نشأتهم بتعاليم الديانة اليهودية، بل إن عبد الله بن سبأ – أول من جعل للتشيع صبغة مذهبية واضحة– كان يهوديَّ الأصل على حد قول أستاذنا الدكتور محمود مكى (4).

لقد استوزر باديس بن حبوس وزيراً يهودياً هو اسماعيل بن نغريلة ، وذلك للأسباب التى أشرنا إليها آنفا فضلا عن أن ابن نغريلة كشف لباديس مؤامرة يدبرها ابن عمه للتخلص منه ، واستيلائه على حكم غرناطة (5).

وفى سنة448هـ/1056م توفى صمويل بن يوسف بن النغريلة،وتولى ابنه يوسف الوزارة لباديس بن حبوس (1) وأسدى إليه نصائح كثيرة حظي بها عنده وتعالى على على

1عنان : دول الطوائف ، ص137،138.

2دوزى : المسلمون فى الأندلس ، 3/19،20.

3أنظر : الشعر الأندلسى ، ص268-270.

4أنظر : التشيع ، ص130.

5عنان : دول الطوائف ، ص127.

القروي الذى ساعده فى الوصول إلى الوزارة ، وعلى جميع الناس فى المملكة [2]. بل تعدى ذلك إلى التنصل من الأديان حتى وصفه الناس بأنه لا يؤمن بملة آبائه اليهودية ولا بغيرها من الملل ، وهاجم الإسلام وصرح باستحالة مطابقته للعقل ، وانتقد القرآن ذاته ، وجاهر بأنه قادر على أن ينظم آياته فى أشعار وموشحات يتغنى بها فى المجالس والأسواق [3] وصنف كتابا قصد فيه بزعمه إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن ، الأمر الذى دفع ابن حزم إلى الرد عليه فى رسالته المشهورة (رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى) ، لنصرة دينه والذب عن ملته ، وقد صدر هذه الرسالة بفتوى تبيح سفك دم (يوسف) والاستيلاء على أمواله وسبى نسائه وولده ، لنقضه عهد الذمة بالتطاول على الإسلام وأهله ثم جمع الاعتراضات التي أثارها (يوسف)، وهى ثمانية[4].

لقد ترك باديس الشأن الداخلي في إمارته لوزيره اليهودي يوسف بن نغرالة، الذي استأثر بالسلطات ونصّب العمال والجباة من اليهود،وقد أبدى ابن نغرالة همة في جمع الأموال، جعلت له حظوة عند باديس، وقدأثار ذلك الاستئثار والتملك حسد بلقين أكبر أبناء باديس،

---

(1) قارن الأمير عبدالله ، التبيان، ص37،38 ; isidro de las cagigas , andalucia musulmana ,instituto de estudios africanos , madrid ,1950, p.48

(2) نفس المصدر، ص39،40،42،50 ; وأنظردوزى ، المسلمون فى الأندلس،3/75 .

(3) ومن ذلك قوله

نقشت فى الخد سطرا من كتاب الله موزون

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .أنظر: ابن سعيد:المغرب فى حلى المغرب،2/ 114; دوزى:مرجع سابق،3/75 ; الطاهر مكي:دراسات أندلسية،ص63.

(4)أنظر: رسائل ابن حزم،3/42، E.garcia gomez :polemica religiosa entre ibn hazm e ibn alnagrila,alandalus,revista de las escuelas de estudios arabes de Madrid y granada,1936-1939,vol,1v, p.25; عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص314،315.

فعمل على الإيقاع بابن نغرالة ، وأدرك ابن نغرالة نوايا بلقين، فدعاه للشراب، ودس له سمًا في شرابه مات بعده بلقين بيومين عام 456 هـ، واتهم فيها بعض جواري القصر(1).

أحس يوسف بن نغرالة بعد ذلك بتغير باديس عليه، فراسل المعتصم بن صمادحصاحب ألمرية يدعوه للاستيلاء على غرناطة (2)، وكان المعتصم وباديس أصدقاء منذ أن ساعد باديس المعتصم عندما أراد ابن أبي عامراسترداد ألمرية (3).

كانت غرناطة في تلك الفترة تتأجج ضد اليهود لما أرهقوا به الناس من شدة في الجباية والمعاملة إرضاءً للأمير (4) ،وزاد ذلك تنديد ابن حزم بباديس بن حبوس 429هـ /1038م- 466هـ/ 1073م صاحب غرناطة لاستبقائه صمويل (إسماعيل) بن يوسف اليهودي فى الوزارة حتى وفاته سنة 448هـ/1056م، واتخاذه من ابنه يوسف وزيراً له(5). فضلا عن ما كان يتداول من شعر أبي إسحاق الألبيريالذي دعا فيه أهل غرناطة للثورة على ظلم اليهود بين العامة، مما أدى إلى اشتعال الثورة في 10 صفر 459 هـ، بعد أن حدثت مشادة في قصر ابن نغرالة، خرج على إثرها عبد وأشاع أن ابن صمادح سيهاجم المدينة ،ومن ثم هاجم الناس القصر، وقتلوا ابن نغرالة، وهاجموا اليهود في كل مكان وفتكوا بعدد كبير منهم(6).

كان تنديد ابن حزم فرصة لحساد باديس ومبغضيه خاصة أهالي إشبيلية الذين أقام ابن حزم بين أظهرهم فترة طويلة قبل إحراق كتبه ، استطاع خلالها أن ينشر فكره، والذى كان له

1ابن عذارى : البيان ، 264/3 ; أنظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، 434/1،439.

2ابن عذارى : البيان ، 266/3.

3نفسه ، 174/3.

4عنان : دول الطوائف ، ص135.

(5) أنظر: رسالة فى الرد على ابن النغريلة، رسائل 67/3 ; عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص157.

6ابن الخطيب : الإحاطة ، 440/1 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص137.

أثره فى إظهار أهلها الكراهية لأهل غرناطة. لأنهم قبلوا أن يستوزروا يهودياً، حتى لقد قال أحد الشعراء الإشبيليين فى تهنئة المعتضد بن عباد بالنصر فى الحرب التى خاضها ضد باديس بن حبوس:.

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسموا بربرا (1)

لقد أحدثت رسالة ابن حزم السابقة دوياً فى المجتمع الأندلسي، وكانت مقدمة للعديد من الصيحات التى ارتفعت منددة بتسلط اليهود بغرناطة ، وداعية إلى الخروج عليهم ومنها صيحة (ابن الجد) الشاعر المشهور(2) (وأبو إسحاق الألبيرى) الزاهد المشهور الذي توجه بقصيدته إلى كل القوى التى يتكون منها المجتمع الغرناطى .

والمطالع لفتوى ابن حزم فى مقدمة رسالته، والأبيات من الثاني والأربعين إلى الرابع والأربعين من قصيدة أبى إسحاق ، يرى أثر ابن حزم على أبى إسحاق الذي دعا للخروج على اليهود لنكثهم العهد ، وقطعهم الذمة التى بها تعصم دماؤهم(3) ، وهكذا فقد تضافر

---

(1) دوزى، المسلمون فى الأندلس، 68/3، 69 ; وانظر : عبدالباقى السيد : ابن حزم الظاهرى ، ص157.

(2) ومن قوله

تحكمت اليهود على الفروج وتاهت بالبغال وبالسروج

وقامت دولة الأنذال فينا وصار الحكم فينا للعلوج

فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج أنظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دارالثقافة، بيروت، ط6،1981،ص146

(3) ومن قوله

ولا تحسبن قتلهم غدرة بل الغدر فى تركهم يعبثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين

وكيف تكون لهم ذمة ونحن خمول وهم ظاهرون عن أبى إسحاق وقصيدته انظر: Dozy , recherches sur l histoire,T.1, P.282-294 ; غرسيه غومث ، مع شعراء الأندلس، ص86-116 .

الفقه مع الشعر فى استنفار الناس للخروج على يوسف ابن النغريلة وعشيرته ، وانتهى الأمر بمقتله ومقتل الآلاف من اليهود ومصادرة أموالهم يوم السبت10صفر459ه/1067م(1)

وقد أخطأ كل من ابن بسام(2) وابن خلدون(3) فيما ذهبا إليه من أن المقتول هو إسماعيل بن يوسف ، لما سبق من أن إسماعيل توفى سنة448هـ/1056م ، وتولى بعده يوسف ابنه الذى رد عليه ابن حزم.

توفي باديس في 20 شوال عام 465هومملكته تمتد من بسطة شرقاً حتى إستجةورندةغرباً، وبياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوباً. وكان قد أتم بناء مدينة غرناطة، وبنى قصر الحمراء(4).

بعد وفاة باديس اتفق شيوخ صنهاجةعلى تولية حفيده عبد الله بن بلقين، متجاوزين شقيقه الأكبر تميم بن بلقينالذي كان والياً على مالقةمن قبل جده، مما جعل تميم يغضب ويعلن استقلاله بمالقة، وقداستغل المعتمد بن عبادوفاة باديس، فهاجم جيان، واستولى عليها عام 466 هـ. ثم سار إلى غرناطة، لكنه لم ينجح في هزيمة جيش صنهاجة (5).

عقد عبد الله بن بلقين بمشورة من وزيره سماجة مع ألفونسو السادس ملك قشتالةمعاهدة تحالف يؤدي فيها جزية ليساعده ألفونسو في حملته على أراضي إشبيلية، التي استطاع أن يستعيد قبرةفيها،بعدئذ سار عبد الله لقتال أخيه تميم الذي أغار على ثغر المنكب،

---

(1) الأمير عبدالله ، التبيان، ص54 ، وقد تناقض ابن عذارى فى سنة مقتله فجعلها440هـ/1048م فى موضع،459هـ/1067م فى آخر أنظرالبيان المغرب،3/276،275،266،231 ،وكذا ابن الخطيب حيث ذكر فى الإحاطة،1/448 أن مقتله سنة459هـ/1067م،وفى أعمال الأعلام،2/232 جعل قتله سنة469هـ/1076أو سنة465هـ/1072م والصواب ما ذكرناه بأعلاه لأنه رأى الأمير عبدالله الذى عاصر الأحداث 0

(2)أنظر: الذخيرة، قسم1مجلد2ص769

(3)أنظر: العبر،4/161،160

4نفسه ، ص139.

5نفسه ، ص142.

واستطاع هزيمة تميم، وكاد أن ينهي حكمه على مالقة لولا تدخل والدتها، فتركه على حكم مالقة (1).

تصالح عبد الله مع المعتمد بن عباد في أواخر عام 477 هـ ، وذلك قبل أشهر من سقوط طليطلةفي يد ألفونسو السادس ملك قشتالة في أول صفر 478 هـ، التي كان سقوطها سببًا في قرار ملوك الطوائف، استدعاء يوسف بن تاشفينزعيم المرابطين،لنصرتهم في قتالهم معقشتالة (2) ،وشارك الزيريون مع قوات الأندلس إلى جانب جيش المرابطين في معركة الزلاقةعام 479 هـ ، وفي 10 رجب 483 هـ، خلع يوسف بن تاشفين عبد الله بن بلقين ،ونفاه إلى أغماتلما بلغه من أخبار عن تحالف سري عقده عبد الله مع ألفونسو لمقاومة المرابطين،وتوفي عبد الله في منفاه في أغمات(3).

1نفسه ، ص143،144.

2نفسه ، ص145،146.

3ابن الخطيب : الإحاطة ، 1/140 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص321،340،342.

المبحث الرابع : قيام دولة للخوارج النكار فى الأندلس :

قبل الحديث عن قيام بعض الدول للخوارج الأباضية النكار بالأندلس لابد وأن نشير إلى نشأة الخوارج فى المغرب ، ثم انتقالها للأندلس ، ونجاحها فى تأسيس دولة استطاعت أن تبقى ولو لفترة ليست بالطويلة .

بدأ تحرك البربر في مطلعالقرن الثاني للهجرة مع بداية ولاية يزيد بن أبي مسلم لإفريقية عام 102هـ (720م)، وكان هذا الوالي على حد تعبير ابن عذارى" ظلوما غشوما ...وكان البربر يحرسونه فقام على المنبر خطيبا فقال : إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره حرسيليعرفوه بذلك بين سائرالناس فلما سمعوا ذلك منه.أي الحرس.اتفقوا على قتلة " (1).

كانت هذه الحادثة في بداية القرن الثاني الهجرى بعد المحاولات الجادة التي بذلهاالخليفة عمر بن عبد العزيز لتدعيم إسلام البربر وإرسال الكثير من التابعين للمغربيعلمونهم أصول الدين ويبصرونهم بقواعده فقد أحس البربر أن ولاة الأمويين عادوا اليأنظمة الحكم البيزنطية التي لم يرتضوها وانطلقت الشرارة مرة أخرى في طنجة التي تسلطعليها أحد ولاة عبيد الله بن الحبحاب " فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر وأرادأن يخمس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين "(2).

حاولالبربر إصلاح تلك المساوئ بالحسنى وارتفع صوت الشكوى في كل مكان إلا أنهم لميتمكنوا من الوصول إلى الخلفاء الذين احتجبوا في قصورهم وكان الخلفاء أنفسهم "يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عامل أفريقية فبيعت لهم البربريات السنياتفلما

1أنظر : البيان المغرب ، 1/48.

2ابن عذارى : مصدر سابق ، 1/51،52.

أفضي الأمر الى ابن الحباب مناهم بالكثير وتكلف لهم أو كلفوه فاضطر الى التعسفوسوء السيرة "(1).

أدت مساوئ الإدارة الأموية اليالتذمر وسخط البربر ، ووجد دعاة المذاهب المناهضة للأمويين بيئة صالحة لبث آرائهمفهيأوا البربر للثورات ونبذ طاعة الولاة كما حركت تلك المساوئ في نفوسهم الرغبة فيالانفصال عن مركز الخلافة ، وكان دعاة الأباضية من بين أولئك الدعاة الذين وجدوا أرضا صالحةلأفكارهم.

ترجع نشأة مذهب الأباضية – حسب معتقدهم- إلى جابر بن زيد من أبرز علماء النصف الثاني منالقرن الهجري الأول ;التقى جابر بعدد كبير من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذعنهم وقد نقلت كتب السير عن جابر أنه قال : " أدركت سبعين رجلاً من بدر فحوينا ماعندهم من العلم إلا البحر الزاخر " ، ويقصد به ابن عباس ، وكان ابن عباس يقول عنه:"اسألوا جابر بن زيد فلو سأله من بالمشرق والمغرب لوسعهم علمه"(2).

كان لآراء جابر السياسية الصريحةالتي نادت بالقضاء على نظام الوراثة الأموي والتمسك بنظام الشورى صدى واسع في نفوسالبعض ، وقد أزعجتتلك الأفكار البيت الأموي فتعرض جابر لمراقبة الأمويين ولم يسلم من أيديهم فنفاهالحجاج من البصرة إلى عمان حيث مكث فترة عاد بعدها إلى البصرة مواصلاً رسالته لوضعأسس الدولة حسب قناعاته إليأن توفي (3).

أخرجت مدرسة جابر عدداً كبيراً من رجال العلم من أشهرهم عبدالله بن أباضوابي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي – أحد موالى بنى تميم- ، كان زنجياً أسود اللون لكنه كان سيداً بعقله وذكائه.

1نفسه ، 1/ 52

2أنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، 131/7 ; الذهبى : سير أعلام النبلاء ، 482/4.

3أحمد درويش : جابر بن زيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1991م ، ص140-144.

أصبح أبو عبيدة مرجع الإباضيةدون خلاف بعد جابر بن زيد ،ويكني "أبو عبيدة" بابنته "عبيدة" التي أخذت العلم عن والدها فرُويت عنها آثار في كتب الفقه "الإباضي" فيما يتعلق بأخبار النساء، أما والد "أبي عبيدة" وهو "أبو كريمة" فقد كان معاصرا للإمام جابر بن زيد .

عاش "أبو عبيدة" في البصرةواشتهر بالتقوى والزهد والورع وكان له جهد كبير في تنظيم الدعوة والدعاة كما كان له الفضل في انتشار الإباضيةفي مختلف الأمصار، وهو أشهر علماء الإباضيةفي تلك المرحلة من مراحل تاريخ الإباضيةوالتي كانت تعرف بالكتمان ، وقد وصفه الشماخى بقوله : " تعلم العلوم وعلمها، ورتب روايات الحديث وأحكمها، وهو الذي يشار إليه بالأصابع بين أقرانه ويزدحم لاستماع ما يقرع الأسماع من زواجر وعظه وقد اعترف له بحوز قصب السبق في العلوم واعترف مع ذلك بضيق الباع مع ما هو عليه من الاتساع " ([1]).

تولى أبو عبيدة التدريس بعد الإمام جابر بن زيد، مدة أربعين سنة فأخذ عنه العلم خلق كثير، رغم ما ابتليَ به من مضايقة، وتشديد. فقد سُجن مع زميله ضمام بن السائبوبقي في السجن إلى أن مات الحجاج بن يوسف الثقفيسنة 95 هـ.وقد اضطر تحت الضغط أن يقوم بالتعليم مستترا، وأن يخفي مدرسته عن الأنظار. وقد اشتهر بلقب القفاف، لأنه كان يشتغل بصنع القفاف، وهي حرفة شريفة، كان يرتزق منها هو وتلاميذه رزقا شريفا حلالا، فبعد خروجه من السجن اتخذ مدرسته في سرداب خفي طويل ووضع على مدخله سلاسل من الحديد، فإذا سمع صلصلتها هو وطلابه علموا أن غريبا يريد الدخول، فأوقفوا الدرس، واشتغلوا بصنع القفاف، فلا يشتبه الزائر في أمرهم، فإذا غادرهم وأمنوا من عيون الجواسيس ، رجعوا إلى ما كانوا عليه. ورغم هذه الظروف الصعبة, فقد تخرج من هذا السرداب عدد كبير من الطلبة حمل العلم إلى مختلف البلدان،وقد اشتهر منهم:

1أنظر : السير ، دار المدار الإسلامى ، 2009م ، 87/1.

• من خراسان : هلال بن عطية الخراساني،وأبو عيسى الخراساني، وأبو منصور حاتم بن أبي منصور، وأبو غانم بشر بن غانم الخراسانيوهو مؤلف (المدونة الصغرى والكبرى).

• من العراق :أبو غسان مخلد بن العمرد، وخلف بن زياد البحراني، وعبد الملك الطويل، وشعيب بن المعرفوسهل بن صالح.

• ومن اليمن :سلمة بن سعد الحضرميالذي ذهب إلى المغربداعيا ومعلما،وعبد الله بن يحيى الكنديالذي بويع بالإمامة في اليمنفيما بعد،وأبو الخطاب المعافريالذي انتقل إلى المغربمع حملة العلم وهو أول من بويع بالإمامة في ليبيا، وكذلك أبو أيوب وائل بن أيوب الحضرميوهو الذي تولى رئاسة الإباضيةبالبصرةبعد رحيل الإمام الربيع بن حبيب الأزديإلى عمان .وغيرهم كثير.

• من الحجاز :محمد بن حبيب المدنيومحمد بن سلمة المدني، وأبو سفيان محبوب بن الرحيل المكيوهو يعد من حملة العلم إلى عمانلأنه رحل إلى عمانومات بها وهو صاحب كتاب (السير في التاريخ) الذي يروي عنه الدرجينيوالشماخيسير الإباضيةالأوائل.

• من عمان :درس على يد "أبي عبيدة" خليفته في إمامة الإباضيةفي البصرة :الربيع بن حبيب الأزدي، وكذلك أبو حمزة المختار بن عوف، وبلج بن عقبة الفراهيدي، والجلندى بن مسعود، وأبو عبيدة الصغير.

• من المغاربة: درس عليه في أول الأمر أبو عبد الله محمد بن مغطير الجناوني، ثم بفضل مجهودات سلمة بن سعدجاءه الطلبة الأربعة المعروفون بحملة العلم إلى المغرب، وهم :إسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي ، وعاصم السدراتي، وعبد الرحمن بن رستممؤسس الدولة الرستميةبالجزائر [1].

كان "أبو عبيدة" عالما فذا من علماء الإباضيةالأوائل وفقهائهم البارزين كما كان يتمتع بقوة سياسية بارعة وأفق واسع مما ساعده على تنظيم الدعوة الإباضيةفي مرحلتها السرية

1 الدرجيني : طبقات، 1/12-20

بشكل دقيق وذكي. ولا غرو بالتالي أن يعزو المؤرخون إليه الفضل الأكبر في نمو حركتهم وانتشارها في أقطار إسلامية كثيرة خارج البصرة .وقد بدأ "أبو عبيدة" زعامة أهل الدعوة بعد موت الحجاج بن يوسف الثقفيعام 95 هجرية واتفق ذلك مع بداية حكم سليمان بن عبد الملكالذي كان على علاقة وثيقة مع "المهالبة" زعماء الأزدالذين انضموا إلى الإباضيةبأعداد وفيرة.

وخلال هذه الفترة التي امتدت إلى نهاية خلافة عمر بن عبد العزيزتميزت العلاقة بين الإباضيةوالأمويينبنوع من الهدوء . حيث استغل "أبو عبيدة" ومشايخ الإباضيةهذه الفرصة لتنظيم أمورهم وتربية أتباعه فكانت له مجموعة من المجالس يرتادها أتباعه منها مجالس عامة لكافة المسلمين ومجالس خاصة بالمشايخ ومجالس خاصة لحملة العلم وهذه المجالس الأخير خاص بإعداد الدعاة وإرسالها إلى مختلف الأمصار.

وكان أبو عبيدة يكره الخروج على الحكام قال "أبو سفيان" قيل "لأبي عبيدة" ما يمنعك من الخروج ولو خرجت ما تخلف عنك أحد، قال ما أحب ذلك ولو فعلت ما أحببت ولا أحب أن أقيم ما بين الظهر والعصر مخافة الأحكام. ولقد أدرك "أبو عبيده" بفطنته أنه لا يمكن أنه لا أمل في ذلك، فقد نذر نفسه للقيام بالتربية والتنظيم فقد كان يرسل تلاميذه إلى المشرق والمغرب للقيام بالدعوة والتعرف على أحوال المسلمين في الأماكن البعيدة عن مركز الحكم. فأرسل سلمة بن سعدإلى جهة المغرب وأرسل غيره إلى عمانواليمنوحضرموتوخراسانفجاءته الطلبة من كل مكان يدرسون عنده في ذلك السرداب الخفي وكان يعدهم كدعاة وكان يساعده في ذلك نخبة من العلماء الأخيار منهم أبو نوح صالح الدهانو"حيان الأعرج "وضمام بن السائبأما حاجب أبو مودود الطائي، فقد قال عنه أبو العباس الدرجيني : " كان بالاجتهاد موصوفا وبالزهد والورع معروفاً" ، وقال عنه المليح وهو أحد معاصريه: " ما رأيت متكلما يتكلم قائما في مجلس قبله ولا بعده" . كان حاجب الطائى ساعد "أبو عبيدة" الأيمن وهو المسؤول عن جمع المساعدات وحل المشاكل ، ومن

ذلك أنه أرسله وهو مريض بالرمد إلى حضرموتللخلاف الذي وقع في أمر عبد الله بن سعيدحين جعلوه في الحديد فقال لهم لقد خرجت من أجلكم فما أبصر من البصرةسهلا ولا جبلا ومما أرجو من قضاء نسكي. يا أهل حضرموتإنكم غلبتمونا فقال له وائل بن أبي أيوب الحضرميير حمك الله لا نخرج من رأيك.

اضطر "أبو عبيدة" تحت الضغط السياسي والقهر بعد وفاة عمر بن عبد العزيزأن تكون مدرسته بعيدة عن الأنظار وأن يختار تلاميذه اختيارا جيدا وأن يضع لهم قوانين تحميهم من الاختلاط أو التعرض بالسلطة الحاكمة فكان يطرد كل من يخالف أو يستبد برأيه أو يخرج عن إجماع المسلمين كما فعل مع حمزة وغيلان.

قال "أبو سفيان" أتى حمزة الكوفي" أبا عبيدة" ليذاكره في أمر القدر فخرجا إلى منزل حاجب فتناظرا كثيرا وآخر ما سُمع من "أبي عبيدة" يا حمزة على هذا فارقت غيلان ثم بلغهم بعد مدة أنه مشى إلى النساء والضعفاء فكلمهم. وعندها أمر "أبو عبيدة" حاجبا فجمع له الناس قال فتكلم المتكلمون ثم تكلم حاجب فحمد الله وأثنى عليه وقال إن "حمزة" و"عطية" أحدثا علينا أحداثا فمن آواهم أو أنزلهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم فتفرق الناس وطُردا من المجلس.

وقد اهتم الإمام "أبو عبيدة" بموسم الحج اهتماما بالغا فكان لا يفوته إلا نادرا وكانت رحلات الحج للفقهاء فرص يستفيد منها للاجتماع مع فقهاء الأمصار وبقية الصحابة وكبار التابعين وكان يلتقي أيضا بحجاج الإباضيةالقادمين من مختلف الأمصار فيستفتونه ويعرضون عليه مشاكلهم فيحلها لهم، وإذا حدث ما يمنعه من السفر إلى الحجأناب عنه بعض أعوانه "كالربيع" أو "حاجب" أو "ضمام" ففي أحد السنوات مرض "أبو عبيدة", فلما جاء وقت الحجأرسل "الربيع" وحده.

ونتيجة للتنظيم الدقيق استطاع "أبو عبيدة" أن يكون مجتمعا تسيطر عيه روح الجماعة ويسوده المحبة والإخاء والبذل والعطاء والتفاني في خدمة الدين وقد أمر الأغنياء أن يكونوا

عونا للفقراء والمحتاجين من المسلمين وكتب السير مليئة بقصص كثيرة في هذا الجانب، فأبو الحر بن الحصينوهو من مشايخ الإباضيةفي مكةكان غنيا وكان يخصص جزءا من ماله للفقراء والمحتاجين. روى "أبو سفيان" عن عيسى بن علقمةقال أدركته شيخا كبيرا. وكانت تأتيه غلته من البصرةإلى مكةفيقسم نصفها في فقراء المسلمين وربعا نفقته وربعا يهيئه لمن يمر به من المسلمين. كما كان الفضل بن جندبمن خيار المسلمين وفضلائهم وكان ذال مال وسخيا فقد تعهد بدفع دين حاجب أبي مودودعند وفاته.(1).

هذا ما أوردته كتبالإباضية عن قيام المذهب الأباضى . أما غير الإباضية فقد سكت أغلبهم عن هذه الفترةمن تاريخ المذهب الإباضي ولم يعتبر بعضهم تعاليم جابر بن زيد أساساً للمذهب فقد ذكرابن سعد أنه : " قيل لجابر بن زيد إن الإباضية يزعمون أنك منهم فقال أبرأ إلى اللهمنهم . قيل كان بريئاً مما يقولون وكان الإباضية ينتحلونه(2).

ورغم كل ما سبق فقد ارتبط المذهب الإباضي بعبدالله ابن أباض المريالتميمي الذى عاش في البصرة واشترك في الدفاع عن مكة متضامنا مع ابن الزبير ضديزيد بن معاوية وقد كانت له مكانة بارزة في بلاط الخليفة الاموي عبدالملك بن مروانوكان يسدي له النصح.

أدرجت المصادر السنية جميعها – بل وربما بعض المصادر ذات النزعة الشيعية كالمسعودى– الأباضية تحتقائمة فرق الخوارج ، فى حين أن الأباضية أنفسهم يتنصلون من ذلك ويدفعون عن أنفسهم هذا الأمر ويعتبرونه تهمة وفرية ، ويقدمون عدة أدلة على صحة كلامهم منها :

أولا : أنهم لا يمنعون الخروج عليالسلطان الجائر بل يقولون بجوازه فإن خشي أن يكون في الخروج مضرة على الأمة أكثرمما هو واقع عليها فالاستسلام أولى .

---

1 عمرو خليفة النامي : دراسات عن الإباضية ، دار الغرب الإسلامى ، 2001م ، 45-60.

2 ابن سعد : الطبقاتالكبرى، 7/181.

ثانيا : تصدى عبدالله بن أباض إلى مجادلة الخوارج ومناظرتهم ، ومناضلته في سبيل تصحيح قضاياالعقول فيما أحدثه اهل المقالات والبدع .

ثالثا : أن مذهب الإباضية في تناوله لقضايا السياسية أو العقائد يختلف اختلافا واضحا عن الخوارج ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهبأهل السنة .

الجدير بالذكر أن الإباضية وفرق الخوارج اتفقوا معاعلى عدم التزامهم بشرطالقرشية في الخلافة ، ولعل هذا الأمر كان الرابط الذى دفع مؤرخو الفرق وكتابها إلى تصنيف الإباضية فى جملة الخوارج ، وهو ما يتضح صراحة من تعريف ابن خلدون للخوارج حيث قال " أولئك الذين لا يلتزمون بشرط القرشية في الخلافة " . كذلك فإن اشتراكهم مع الخوارج فى سب بعض الصحابة والطعن فيهم أمر لا يمكن لأحد أن يمارى فيه ، وأمور أخرى فصلنا القول فيها بالفصل الأول من هذه الدراسة مما هو غنى عن تكراره.

على أية حال بعد أنتأكد لأبي عبيدة أن قيام الدولة العادلة أمرصعب تحت رقابة الأمويين الصارمة بدأ في إرسال دعاته إلى المناطق النائية ووقع اختياره على سلمة بن سعيد للتوجه إلى المغرب في أول القرن الثاني للهجرة [1] ، وكان المغرب أرضاً صالحة للدعوة ضدالأمويين فوجد سلمة تشجيعاً لم يتوقعه خاصة وأن البربر وجدوا في دعوة الإباضيةالمساواة التي حرمهم منها الأمويون فقام سلمة بنشاط كبير بين قبيلتي هوارة ونفوسةوتأكد بأن ما يحلم به أستاذه يمكن تحقيقه في المغرب فكان يقول " وددت لويظهر هذا الأمر يوما واحدا" فما أبالي أن تضرب عنق "[2].

1الدرجينى : الطبقات ، 11/1 ; وانظر : الشماخي : السير ، ص 98.

2 الدرجيني ، مصدر سابق ، 11/1.

بدأت تحركات الإباضية منذ عام 127هـ / 744م ، ولم يستكينوا بعدهاحتى تأسست دولتهم عام 160هـ / 776م ، وقد مرت الدولة بعدة مراحل حتى قيامها منها:

المرحلة الأولى :محاولة الحارث وعبدالجبار131هـ / 748م :

تمكن عبد الرحمن بن حبيب من فرض نفسه على ولايةأفريقية وطرد الوالي الأموي من القيروان وسعى إلى بسط سيطرته على أطراف الولايةالثائرة وعندما وصل والي عبد الرحمن إلى طرابلس حاول إرهاب الأباضية في المنطقةفقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود ، وجاء رد الفعل على خلاف ما كان يريده الواليفقد تجمع الأباضية تحت زعامة الحارث بن تليد الحضرمي وعبدا لجبار بن قيس المرديلمهاجمة طرابلس وفشلت محاولة عبد الرحمن بن حبيب لتهدئة الموقف بعزل واليه عليطرابلس وتمكن الثوار من فرض سيطرتهم على المدينة عام 131هـ /748م بعد أن حققواثلاثة انتصارات متتالية على قوات عبد الرحمن بن حبيب(1).

تمكن الأباضيةفي أول محاولة عسكرية أن يحققوا الانتصار لكن هذا الانتصار لم يدم طويلاً فقد فوجئت الأباضية بموت قائديها . قيل: " وضع سيف كل واحد منهما في جسم الآخر للفتنة " (2) ، وقيل إن : عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما(3) ، على أية حال بعد هذه الحادثة اختارالأباضية لزعامتهم إسماعيل بن زياد النفوسي لكن عبدالرحمن بن حبيب تمكن من استغلالتلك الظروف والحق بهم الهزيمة وقتل إسماعيل بن زياد (4).

1الشماخى : مصدر سابق ، ص125 ; وانظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية، 1/90.

2 الدرجيني : الطبقات ،1/ 24.25.

3ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، 5/313.

4سعد زغلول : تاريخ المغرب ، 1/292.

المرحلة الثانية :محاولة ابن الخطاب (140هـ –144هـ / 757م.761 م):

بدأ سلمة بن سعيد في حث الأباضيةعلى التوجه إلى المشرق للتزود بالعلم على يد أستاذ المذهب أبي عبيدة فأرسل في أول الأمر محمدبن عبدالحميد بن مغيطر الجناؤني من جبل نفوسة ، ثم تلى ذلك بعثة العلم التي كاناختيارها دقيقا حيث مثلت مناطق مختلفة في المغرب وهى : القيروان والمغرب الأوسط والجنوبالتونسي وغدامس. اختير لها عبدالرحمن بن رستم وعاصم السدراتي وأبو داود القبليالنفزاوي وإسماعيل بن ضرار الغدامسي ، وغادرت البعثة المغرب إلى البصرة عام 135هوانضم إليهم هناك أبو الخطاب عبد العلي بن السمح المعافري .(1)

عاد أفراد البعثة من البصرة يصحبهم أبو الخطاب عام 140هـ بعد أنأعدوا إعداداً تاماً لتركيز دعائم المذهب في المغرب والعمل على تأسيس الدولة وتعاهدالقادة على التعاون واستقر رأيهم على أن تكون طرابلس نقطة البداية وقد هيأت فترةعدم الاستقرار التي عاشها المغرب طيلة العقد الرابع من القرن الثاني المناخلزعماء الأباضية بالتحرك ولما علم الأباضية في المغرب بترشيح أبي عبيدة لأبي الخطابإماماً للدولة المرتقبة اجتمع زعماؤهم في قرية صياد بالقرب من طرابلس وبايعوا أباالخطاب إماما واتفقت كلمتهم على دخول طرابلس(2) .

دخلت قوات الأباضيةطرابلس خلسة وتمكنوا من السيطرة عليها بغير عناء عام 140هـ واعلنو قيام الدولة ، وخضعت لهالمنطقة الشرقية حتى سرت ومنطقة جبل نفوسه ثم بدأوا في التوجه نحو المغرب وذلك لأنفرقة الصفرية تمكنت من السيطرة على القيروان وكان سلوك الصفرية على نقيض الأباضيةفي طرابلس " فاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر ...

1 محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، تاوالت ، 1964م ، ص 188 ، 195،189.
2 الدرجيني : الطبقات ، 1/ 23.

وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع...واستبيحت الأموال والدماء بدون حساب "[1] فضج المسلمون واستنجدوا بأباضيةطرابلس .

سار أبو الخطاب بجنودهنحو القيروان واستولى على قابس التي كان الصفرية قد استولوا عليها ثم واصل زحفه عليالقيروان وتمكن من هزيمة الصفرية ودخل القيروان عام 141 هـ/758م ، وتولى عبدالرحمن بن رستم إدارة القيروان ورجع أبو الخطاب إلى طرابلس[2].

توسعت حدود دولة أبي الخطاب إذامتدت إلى منطقة وهران غرباً وقد ضمت حدود دولته في الجنوب منطقتي ودان وزويلة ، الأمر الذى أزعج الدولة العباسية ، وبدأت الجيوش العباسيةتتحرك من مصر للقضاء علي الأباضية. إلا أن أبا الخطاب تمكن من هزيمة جيشين أرسلهما ابن الأشعث قبل أن يصلا إلى طرابلس [3] .

أدرك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور خطورةالموقف فوجه ابن الأشعث إلى المغرب ;حيثأعد جيشاًكبيرا قدر بثلاثين أو أربعين ألفا من جند خرسان والشام وأعد أبو الخطاب بدوره جيشه الذي قدر بنحو تسعين ألفاً ،وقد ساعدت الظروف ابن الأشعث في ميدان القتال وذلك لتفرق جنود أبى الخطاب إماباختلاف قبيلتي زناته وهواره وانسحاب الأولى من القتال ، أو بخدعة ابن الأشعثوإعلانه الرجوع لعدم إعداد جيشه العدة التي تمكنه من مواجهة أبى الخطاب ، وقدتمكن ابن الأشعث من هزيمة الإباضية في تورغا عام 144هـ (761م) وقتل أبو الخطاب فيالمعركة كما هزم ابن الأشعث مجموعة زناته التي هبت لنجدة أبي الخطاب فانهارت بذلكآخر مقاومة ودخل ابن الأشعث طرابلس ، ولما أحس عبد الرحمن

1 ابنعذارى : البيان ،1/ 70 ; وانظر :ابن خلدون : العبر ، 6/113. .

2 الدرجيني : الطبقات ، 1/29 ; وانظر : ابن خلدون : العبر ،6/113.

3 محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، 2/8.

بن رستم بأن ميزان القويليس في جانبه انسحب من القيروان غرباً وتركزت تجمعات الإباضية بعد ذلك في زولة وجبلنفوسة ومنطقة تيهرت (1) .

كانت قبيلة هوارة مستقرة على الساحل في المطقة الواقعة بينسرت شرقا حتى غربي طرابلس وفي الداخل انتشرت إلى الشرق والجنوب من جبل نفوسة وبعدهزيمة أبي الخطاب بدأوا ينسحبون نحو الجنوب بعيداً عن قبضة الوالي العباسي ويبدو أنابن الأشعث أحس بخطورة تجمعهم في منطقتي ودان وزويلة فأرسل إليهم جيشاً عام145 هـ/762م تمكن من إيقاع الهزيمة بهم في ودان وواصلت القوة زحفها إلى فزان حيثتمكنت أيضا من هزيمتهم وقتل زعيمهم الإباضي عبدالله بن حيان ، لكن ابن الأشعث لمينجح في إخضاع منطقة فزان لسيطرته رغم نجاحه العسكرى فقد تزعمت أسرة بني الخطابالهوارية الإباضية وتمكنت من تأسيس إمارة مستقلة عرفت بإمارة بني الخطاب واتخذت منزويلة عاصمة لها (2).

سيطرت إمارة بني الخطاب على واحات فزان وقامت بدور مهم في ربطالمنطقة بتجارة الصحراء واشتهرت زويلة في هذا العصر كمركز تجاري هام سيطر عليالطريق الصحراوي الشرقي الذي يمر عبر كوار نحو بحيرة تشاد ونهر النيجر وقد ارتبطتزولية عبر هذا الطريق بمصادر ثروات السودان وتجمع فيها التجار من " كل جهة ومنهايفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم " (3).

وقد حافظت الإمارة على استقلالها حتى قيام الدولةالرستمية في تيهرت فدخلت ضمن حدودها ، وبعد سقوط الدولة الرستمية في آخر القرنالثالث الهجري استقلت الإمارة مرة

1أحمد إلياس حسين : الأباضية فى المغرب العربى ، ص11،12.

2ابن عذارى : البيان ، 72/1 ; وانظر : Matin , B.G " Kanim, Bornu and Fazzan ,notes on Political History of a Trade " Journal of African Histovy ,(Vol.C No 1969)p .18.

3 الاصطخري : مسالكالممالك ، لندن ، 1906م ، ص46.

أخرى تحت زعامة نفس الأسرة حتى قضى عليها بهاء الدين قراقوش الغزي الناصريعام 568هـ (1) .

المرحلة الثالثة : قيام الدولةالرستمية (160 ـ 296 هـ) :

بعد هزيمة أبي الخطاب وانسحاب عبدالرحمن بن رستم من القيروان في اتجاه الغرب ، أحس عبد الرحمن بن رستم بضرورة تعديلاالخطة التي اتفق علها مع زملائه في جعل طرابلس نقطة الانطلاق لتاسيس الدعوة فطرابلستقع بين مركزين هامين للدولة العباسية هما مصر والقيروان وقيام أي قوة مناوئةللخلافة بين هاتين النقطتين يعني ضياع ولاية أفريقية ولذلك بدأ عبد الرحمن بن رستميمهد الاستقرار في المغرب الأوسط ويؤيد ذلك تأسيسه لمدينة تيهرت منذ عام 147 هـ /764 معلى ما ذكر ابن خلدون.

كانت الدولة العباسية تسعى لتقوية قبضتها في المغرب الأوسط فبدأت في تحصينمدينة طنبة في الذاب لاتخاذها مركزاً يساعد القيروان في ضرب الثوار وشعر الصفريةبخطورة تحصين طنبة وكانوا قد بايعوا منذ عام 148هـ /765م أبا قره بالخلافة ،ولذلك قرروا مهاجمة طنبة واستنفروا الأباضية فالتف أمراء القبائل من كل فجواجتمعوا في إثني عشر ألف حيث توجهوا إلى الذاب وكان أمراء المغرب في ذلك الوقتورؤساؤهم أبو قرة الصقري في أربعين ألفاً، وعبدالرحمن بن رستم الأباضي في خمس عشرألفاً، وأبو حاتم في عدد كثير (2) .

لم يتمكن الحلف من تحقيق انتصار سريعإذ تمكن عمرو بن حفص – والي أفريقية الذي كان في داخل طبنة – من إثارة الفتنة بينصفوف الصفرية فانسحبوا من الميدان ثم انهزم عبد الرحمن بن رستم وتقهقر إلى تيهرتعام 151هـ / 769م أما أبو حاتم الذي كان يتزعم أباضية

1 ابن خلدون : العبر ، 6/143.

2 ابن عذارى : البيان ، 1/ 75 ;وانظر: ابن خلدون : العبر ، 6/112..

طرابلس فقد تمكن مناحتلال طرابلس عام 154 هـ ثم توجه إلى القيروان وفرض عليها الحصار(1) .

قدرعمرو بن حفص وهو في طنبة خطورة الموقف إذا ما سقطت القيروان ولذلك خاطر بدخولها رغمالحصار المضروب عليها وتمكن من تحقيق ذلك فعلاً لكن الحصار اشتد على القيروان وأديسقوط طرابلس إلى توافد الأباضية على القيروان لدرجة جعلت ابن خلدون يبالغ فيتقديرهم إذ جعلهم " ثلاثمائة وخمسون ألفاً ، الخيل منهم خمسة وثلاثون ألفاً ، وكانواكلهم أباضية " (2) ، ولم تتمكن القيروان من صد المحاصرين وقتل عمرو بن حفص واستسلمتالمدينة فدخلها أبو حاتم عام 154 هـ / 770م .

تمكن الأباضية مرة أخرى منعزل أفريقية وإنهاء تبعيتها للخلافة المركزية لكن لم يعقب الاستيلاء على القيروانإعلان قيام الدولة ولم يتحرك عبد الرحمن بن رستم من تيهرت وربما دل ذلك على إحساسهبضرورة التريث في المغرب الأوسط واتخاذ تيهرت مركزاً لإعلان قيام الدولة ،وسرعان ما تحركت الدولة العباسية فأعدت قوة قدرت بتسعين ألفاً تحت قيادة يزيد بنحاتم حيث التقى ابن حاتم بطليعة تلك القوة في مغمداس وتمكن من تحقيق انتصار سريع لكنهتراجع أمام وصول باقي القوات العباسية والتجأ بجبل نفوسة ، حيث لاحقته جيوشالعباسين فهزم أبو حاتم وقتل عام 155هـ /771م وأعادت الخلافة سيطرتها عليولاية أفريقية (3).

ظل عبد الرحمن بن رستم في تيهرت إبان حروب أبي حاتم وبعدسيطرة القائد العباسي يزيد بن حاتم على القيروان لم يحاول الوصول إليه وقنع كلامنهما بالاحتفاظ بما تحت يده وقد أدت الهزائم التي لحقت بالأباضية في طرابلس وجبلنفوسة إلى ازدياد هجرتهم إلى تيهرت

---

1 الشماخي : السير ، ص138.

2ابن خلدون : العبر ، 113/1.

3ابن عذارى : البيان المغرب ، 78/1 .

خاصة الفترة التي أعقبت هزيمة أبي حاتم وتأكدهم من صعوبة الاحتفاظ بولاية أفريقية فاتفقت كلمتهم على إعلان قيام الدولة في المغربالأوسط وبويع عبد الرحمن بن رستم إماماً لها في تيهرت عام 160هـ /776م [1].

امتدت حدود الرستميين الشرقية حتى سرتشرقاً ، أما في الغرب فلم تمتد حدودها بعيداً عن تيهرت فلم تتعدى واد شلف ، وقدامتدت حدود الدولة جنوباً فشملت واحات فزان حيث ضمت إمارة بني الخطاب كما ضمت جبلنفوسة وبلاد الجريد وانضم إلى الدولة الرستمية أباضية جزيرة جربة بينما ظلت مجموعةكبيرة من الأباضية داخل القيروان وكان لهم مفتيان على مذهبهم في النصف الاول منالقرن الثالث الهجري [2] .

لم يكن للإمام سلطة مباشر تفرضها الحكومة المركزية على المناطق التابعة للدولة فكانارتباط فزان وجربة وجبل نفوسة بتيهرت ارتباطاً روحياً أكثر منه سياسياً ولم تقمالدولة الرستمية بفرض الضرائب على رعاياها واكتفت بالزكاة فقط وقد وفرت الدولةالحرية لكل المذاهب الإسلامية [3] .

تعرضت الأسرة الرستمية لأول معارضة بعد وفاة عبدالرحمن بن رستم فقد ترك أمر الإمامة شورى بين سبعة من كبار العلماء بينهم ابنه عبدالوهاب وأبو قدامه يزيد بن فندين فاتفقت الجماعة عل بيعة عبد الوهاب بن عبد الرحمنغير أن ابن فندين اشترط لعبد الوهاب بن عبد الرحمن " ألا يقضي في شئ دون مشورةجماعة مخصوصة من الناس " فأجابه أحد العلماء " لا تعلم في الولاية شرطاً غير أنيحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه " ، وتمت البيعة دون أن تثير جدلاً[4].

1قارن : الدرجينى : الطبقات ، 40/1 ; الشماخى : السير ، ص139.

2سعد زغلول : تاريخ المغرب ، 396/1 ; وانظر : على معمر : الأباضية ، الحلقة الثالثة ، ص47.

3على معمر : الأباضية ، الحلقة الثالثة ، ص47.

4الدرجيني ، الطبقات ، 47/1..

كان ابن فندين يرى في نفسه الكفاية والقدرة ، وبدأ في إثارة الناس زاعماً أنالإمامة باطلة لأن عبد الوهاب لم ينفذ الشرط الذي وافق عليه وقت البيعة وهو استشارةجماعة خاصة وحدث الخلاف بين الناس وأرسلوا إلى امام الأباضية بالبصرة الربيع بنحبيب يستفتونه .

استثمر هذا الخلاف شخص آخر من الأباضية كان مقيماً بمصر وهو أبوالمعروف شعيب بن معروف وكان قد اختلف مع أبي عبيدة في مسألة القدر ، وحضر أبو المعروف إلى تيهرت ليلفت انتباه الناس إليه طامعافي الإمامة (1).

انضم أبوالمعروف إلى ابن فندين ولما كان غرضهما هو الوصول إلى الحكم فقد ألبا الناس قبلوصول الفتوى من البصرة لعلمهما بأنها لن تكون في صالحهما ، وحمل المعارضون السلاحضد عبد الوهاب ودارت الحرب بين الطرفين وانتهت بوفاة ابن فندين وعرف أصحابة باسمالنكار وتميز الأباضية الآخرون باسم الأباضية الوهبية (2) .

ظلتمعارضة النكارية في منطقة طرابلس حيث قويت مرة أخرى بعد تولية أفلح بن عبد الوهابعام 238هـ / 852م . حيث خرج المعارضون تحت قيادة خلف بن السمح غير أن أباضية الجبل تمكنوامن القضاء عليهم وقد تعرض أبو بكر بن أفلح أيضا لاضطرابات شديدة في داخل تيهرتفتمكن أخوه ابواليقظان بن أفلح بعد بيعته من تهدئتها وأعاد للإمامة هيبتها في فترةحكمه الطويلة التي امتدت حتى عام 281هـ /892م ، وبعد وفاة أبي اليقظان تجدد النزاعواختلف الناس على ابنه الإمام أبي حاتم وخرج عليه عمه يعقوب فدارت الحرب بينهماوحسمت بعد أربعة أعوام لصالح الإمام أبي حاتم لكنه لقى مصرعه عام 294هـ/ 906م على يدابن أخية وبهذا الحدث انتهت الإمامة وتبرأ أهل الدولة من اليقظان الذينصب نفسه والياً على تيهرت واستقلت كل ناحية من الدولة بواليها القديم وبمجلسالشورى

1 علي يحي معمر : الأباضية بين الفرق الاسلامية ، ص258. 262.
2نفسه ، ص292.

ولذلك وقعت تيهرت فريسة سهلة في أيدي الفاطميين فدخلوها دون حرب عام296 هـ/908م (1).

نظم الأباضية معارضتهم من داخل تيهرت وذكر ابن عذارى أنهم انتصرواعلى الوالي الشيعي وقتلوا أكثر أصحابه وكانوا ألف فارس " لكن عززت الدولة الفاطميةموقفها وأرسلت إليهم أعداداً عظيمة وخلق لا يحصى كثرة " تمكن من إنزال هزيمة قاسيةبالأباضية بالمدينةوقتل الألوف من سكانها (2) .

أدت هذه الهزيمة إلى هجرةأعداد كبيرة من الأباضية جنوبا فاستقروا في ورجلان بعيداً عن قبضة الشيعة فورثتورجلان الحضارة الرستمية في المغرب الأوسط وعمروا منطقة سدراته الواقعة الى الجنوبمن ورجلان بسبعة أميال فظهرت القرى العظيمة التي عرفت باسم السبع مدن (3) ، وقد وصفالإدريسي سكانها بأنهم قبائل مياسير وتجار أغنياء(4).

أما أباضية منطقةطرابلس فقد حاولوا مقاومة الشيعة وتقدموا حتى حاصروا طرابلس ولكنهم هزموا عام 218 هـ / 910م (5) .

وفيجربة حافظ الأباضية على حيادهم في أول عهد الدولة الفاطمية إلى أن اتجه الشيعة نحوالبحر فاحتلوها عام 311هـ/ 923م ، ومن ثم خضعت جربة لهم خضوعاً مباشراً ، وقدعانى أهلها قسوة الحكم الشيعي فسعوا للتخلص منه ، وانضمت جربة إلى ثورة أبي يزيد بن كيدادفي بدايتها لكنهم انسحبوا من تأييده وعادوا إلى حكم الشيعة مرة أخرى

1الدرجينى : الطبقات ، 1/49-51 ; وانظر : ابن عذارى : البيان ، 1/197.

2ابن عذارى : البيان المغرب ، 1/166،165.

3 السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص581; وانظر : محمد بن تاوت " دولة الرستميين أصحاب تيهرت ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ،مجلد 5 عدد1 ،2 ، 1957م ، ص127.

4أنظر : صفة المغرب وأرض السودان ومصروالأندلس ، ليدن ، 1864م، ص120.

5ابن عذارى : البيان المغرب ، 1/163.

وأثمرتجهودهم بالخلاص من الحكم الشيعي في الفترة الواقعة بين 350هـ-431هـ/961م-1039م [1].

بعد ضعف النفوذ الفاطمى في المغرب بانتقال مركزهم الى مصر سيطر الصهناجيونعلى أفريقية وعاش الأباضية حياة هادئة تحت ظلهم حتى في داخل القيروان [2] ، وظلالأباضية منذ ذلك التاريخ يحافظون على كيانهم وتراثهم في ميزاب وجبل نفوسة وجربةوقد ساعد على ذلك النظام الذي التزم به الأباضية في حياتهم واعتبروه البديل لدولتهم ، وهذا النظام يتولى الإشراف على جميع نواحي الحياة في المجتمع الإباضي وهو ما اصطلحعلى تسميته بنظام العزابة [3].

وتجدر الإشارة إلى أن أباضية المغرب لعبوا دورا مهما فى تحقيق التواصل بين المغرب الأوسطوأمويي الأندلس ، بل قاموا بدور مهم فى المجتمع الأندلسى ذاته فعندما قامت دولة بني رستم في المغرب الأوسط وانفصلت عن قاعدةالخلافة ، وعندما قامت دولة بني أمية الجديدة في الأندلس ، فقد ظلت العلاقة بينالأندلس والمغرب الأوسط تتميز بالتعاون في حين كانت تميل إلى نوع من الشدة والحربالباردة مع أجزاء المغرب الأخرى.

ومما ساعد على سهولة الاتصال بين العدوتين، ضيق المسافة البحرية التي تفصل بينهما ; فالساحل المغربي يكاد يتصل اتصالاًمباشراً بالساحل الأوربي عند مضيق جبل طارق ، حتى لقد أصبح تاريخ الغرب الإسلامي فيهذه المنطقة يكاد يتمم بعضه بعضاً من حيث التطور الحضاري ، حتى أن المؤرخين أطلقواعلى كل المغرب والأندلس اسم العدوة إشارة إلى هذه العلاقة. وقد أشار العذري إلى ذلك بقوله " : والمسافةبين بر الجزيرة ومدينة سبتة قريب جداً ، يرى الناس سورها ودورها ، ويرون بياض ثياب القصارين بها ، وتتحرك السفينةمن

1الدرجينى : الطبقات ، 1/97-101 ; وانظر : علي يحيى معمر : الأباضية فى موكب التاريخ ، الحلقة الثالثة ،ص 217، 218 .

2 علي يحيى معمر : الأباضية في موكب التاريخ ، ص48.

3عنه بالتفصيل أنظر : المرجع السابق ، ص97-110.

مرسى الجزيرة عند بزوغ الشمس ، فلاترتفع قدر رمحين ، إلا وقد رست بمدينة سبتة. والجزيرة شرق من شذونة وقبلة من قرطبة" (1).

وبحكم موقع بني رستم الجغرافي بالمغرب الأوسط ، وبحكم الظروف السياسية التي وجدوا فيها، فإنهم اضطروا إلى اللجوءشطر الأندلس نحو بني أمية ، وعقدوا معهم تحالفاً ودياً ، وذلك لأنهم كانوا يتوسطونبين عدوين : الأغالبة من جهة المشرق ، وهم حلفاء بني العباس ، الأدارسة من جهةالمغرب ، وهم علوييون ، والخصومة كانت قائمة على أشدها بين العباسين وحلفائهمالأغالبة ضد بني أمية في الأندلس ، وبين هؤلاء الحلفاء ضد بني رستم ، باعتبار أنكلاً من الأمويين والرستميين يعتبروانفصاليين وخوارج ومغتصبين للسلطة.

ومنجهة أخرى ، فإن الأمويين وجدوا عند الرستميين فرصتهم السانحة لتحقيق أهدافهم ، فلميترددوا في الاستجابة إلى رغبة بني رستم في إقامة التحالف المقترح ، لأن البناءالسياسي للإمارة الأموية الجديدة من طبيعته أنه لا يطمئن إلى دولة الأغالبة التيتمثل الخلافة العباسية عدوة البيت الأموي ، ولا إلى دولة الأدارسة الممثلة للبيتالعلوي الحانق على الأمويين.

صارت السبل بذلك مسدودة أمام هذه الإمارةالأموية الفتية من ناحية المغرب الأدنى ، حيث يوجد الأغالبة ، ومن ناحية المغربالأقصى حيث يوجد الأدارسة ، ولم يبق أمامها مما يربطها بالعالم الإسلامي إلا ذلكالجسر الذي تعبر منه إلى المغرب بشقيه عن طريق الدولة الجزائرية الإباضية في تاهرت.(2)

ويؤكد المؤرخ الأندلسي الكبير ابن حيان على ما أولته الدولة الأموية من أهمية للعلاقات التي تربطها مع دول المغرب العربي بقوله: " كان الأمير محمد بن عبد الرحمن شديد الاهتمام بخبر الساحل والعدوة مراعياًلما هناك من أخبار أعدائهم المسودة (أي العباسيين) متجسساً

1 أنظر : ترصيع الأخبار ، ص118.

2عبد العزيز فيلالي : العلاقات السياسية ، ص96.97.

عن عمالهم محتولاً عنهملكثير ممن يتعرف عليهم من ملوك البربر الملقين إليه بالولاية كبني مدرار، سجلماسة ،ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تاهرت وغيرهم ، فلا تزال رسله وكتبه تتردد إلى هذهالطوائف في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشامومصر وإفريقيا ، فلا يكاد يغيب عليه شيء من جلائلها" (1).

وهكذا ، وفي إطارهذه العلاقة المتوطدة بين الأندلس والمغرب ، وجدنا المبادلات نامية بين الدولتينالرستمية والأموية ، وذلكفي إطار التقاربالسياسي والحضاري ، من أجل الوقوف أمام العدو المشترك.

ويمكن القولبأن تحديد تاريخ هذه العلاقات ، سواء على المستوى الفردي ، أو على المستوى الرسمي ،يرجع إلى عهد عبد الرحمن الداخل أول حكام بني أمية في الأندلس ; فإن المصادر تفيدبأنه أجداد عبد الرحمن بن رستم كانوا موالي لبني أمية ; حيث يؤكد ابن حزم الظاهري على أن ابن رستم ، الجد الأول مؤسس تاهرت كان مولى لعمر بن يزيد بن عبد الملكبن مروان (2).

ويذكر ابن الأبار في حلتهأن أول من دخلالأندلس من أسرة الرستميين ، هو سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم ; كان ابنهمحمد يقيم بناحية الجزيرة ، أي جنوب الأندلس ; وقد اصطنعه الأمير الأموى لنفسه عندما كانأميراً على مدينة شذونة من قبل أبيه الحكم ، وكان يقربه إليه ويأنس به في بعضالأحيان نظراً لمعارفه وسعة معلوماته ، ولما أفضت الخلافة إليه استقدمه إلى قرطبةعاصمة الدولة وصرفه في الحجابة والوزارة.

وقد كان لهذا القائد الجزائري دوركبير في دحر المجوس (النورمان) وردهم عن أرض الأندلس. وتذكر المصادر التاريخية أنهؤلاء المجوس ، أغاروا على بلاد الإسلام وأنهم كانوا إذا أغاروا على موضع أشعلوافيه النيران ، وكانوا يخرجون لغزو الشواطئ في مراكب صغيرة

---

1 أنظر : المقتبس ، ص 266.

2نقلا عن : عبد العزيز فيلالي:العلاقات السياسية ، ص97.

ذات أشرعة سوداء من مراكزهم في جنوب اسكندناوه ، أوجنوب انجلترا أو من مراكز احتلوها على شواطئ فرنساالشمالية في ناحية سميت بعد ذلك باسمهم وهي (La Normaandie) وكانوا إذ ذاك وثنيينلا يفرقون بين المسلمين وغير المسلمين.

وكان أول نزولهم الأندلس سنة 229هجرية بعد غزوهم لغرب فرنسا فقد نزلوا عند لشبونة ودخلوا بسفنهم عند مصب نهر تاجهفتصدى لهم عامل المدينة ، ثم دخلوا مصب الوادي الكبير ودخلوا فادس ثم إشبيليةوأشعلوا النار في مسجد الشهداء.

حشد الأمير عبد الرحمن قواده لحربهم ،وكان على رأسهم القائد محمد بن سعيد بن محمد بن عبدالرحمن بن رستم ، ولما نجح هذا القائد فيإنزال الهزيمة بالنورمانديين سنة 230هـ أرسل صاحب قرطبة رسولاً إلى الإمام أفلحيخبره بما تم من انتصار على هؤلاء المجوس بفضل القائد محمد بن سعيد(1).

كان القائد محمد بن سعيد قد وليأمر الثغر كله سنة 214 هـ بعهد من الأمير عبد الرحمن بنالحكم ، كما أصبح قائداً للجنود التى أرسلها له الأمير لمواجهة الثائر هاشم الضراب الذى هرب من قرطبة إلى طليطلة ، وفيسنة 215 هـ قامت ثورة هاشم الضراب بطليطلة ، واشتدت وطأته على الدولة ، وقويت شوكته فتقدململاقاته محمد بن سعيد بن رستم بنواحى دروقة ، ودارت بينهما حروب طاحنة لعدة أيام انتهت بهزيمة هاشم الضراب وقتله مععدة آلاف من جيشه. (2).

ويصف ابن الأبار هذا القائد الإباضي بأنه كان أديباً ،وله شعر رائق ، وأنه كان حكيماً ماهراً في اللعب بالشطرنج. ويقول مسترسلاً: " إنشعر هذا القائد موجود في كتاب "

1ابن الأبار : الحلة السيراء ، 372/2 ; وأنظر بالتفصيل : حسين مؤنس : غزوات النورمانيين في الأندلس ورحلة يحيىالغزال ، الجمعية التاريخية المصرية ، 1949م.

2ابن عذارى : البيان المغرب ، 83/2.

الحدائق" لأبي عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني " . وقد كتب ابن الأبار نفسه بعضاً من الشعر في مؤلفه الذي سماه " الكتاب الحمدي،ولكنه لم ينقل لنا منه في "الحلة السيراء"(1).

توفى محمد بن سعيدبن رستم الإباضي سنة 235هـ في شهر صفر (2)، ولعل من الطريف أن نشير هنا إلى أنهذا القائد قد تزوج من إحدى بنات علي بن نافع المغني المعروف بـ "زرياب" وهو لقبغلب عليه ببلاد العراق من أجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله ، حيث شبهبطائر أسود غرد عندهم. (3).

وتشير المصادرالتاريخية إلى أن لهذا القائد أخاً يدعى القاسم توفى قبله(4) ولكننا لم نعثر له عليأي نشاط إداري أو سياسي.

وفي سنة207هـ قدم على الأمير عبد الرحمن بنالحكم ، بنو عبد الوهاب بن رستم إمام الدولة الإباضية ، وهم : عبد الغني ،ودحيون ، وبهرام . وكان وصولهم إلى قرطبة يوماً مشهوداً ، فقد استقبلوا استقبالاًفخماً من طرف الأمير الأموى نفسه; وكان معهم كريماً ، وقيل إنه أنفق في ذلك ألفألف دينار ، ثم أعادهم إلى بلادهم ، بعد أن أغدق عليهم الهدايا الثمينة. وتقولالروايات : إن السفينة التي أقلت دحيون وبهرام إلى الجزائر غرقت وابتلعتها الأمواجبمن كان عليها ، أما السفينة التي كانت تنقل الأمير عبد الغني فقد نجت بعد محنةطويلة ثم رست على الشاطئ الجزائري ، وعند وصوله تاهرت وجد أن أباه عبد الوهاب قدتوفى منذ سبعة أشهر ، وتولى الإمامة بعده أخوه أفلح بن عبد الوهاب (5) ، ولمتذكر لنا كتب التاريخ أسباب هذه الزيارة ، ولا النتائج التي أسفرت عنها .

1أنظر : الحلة السيراء،2/ 372.

2ابن حيان : المقتبس ، ص85.

3أحمد شعراوى : دور العرب فى بلاد المغرب والأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط1 ، 2015م ، ص254.

4نفسه ، ص85.

5عبد العزيز فيلالي : العلاقات السياسية ، ص 18.

وإلى جانب ما سبق فقد كان في الدولة الأموية بالأندلس أمير من بني رستم تولى منصب الحجابةلدى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ويرجح الأستاذ ليفي بروفنسال أنه إما ابناً لمحمد بن سعيد المذكور ، وإما أخاً له . فقد تولى الحجابة بعد الحاجبعيسى بن شهيد ; وتقول المصادر التاريخية أنه لما مرض الأمير عبد الرحمن ، ونابعنه فتاة : نصر الخصي ، قام هذا الأخير بإقصاء عيسى بن شهيد عن الحجابة وولى مكانه بدون علم الأمير عبد الرحمن ، واستمر فيها إلى أن شفي الأمير الأندلسى من علتهفلما خرج وقعد لأهل خططه دخل عليه الوزراء يتقدمهم ابن رستم وجلس مجلساًأرفع من عيسى بن شهيد الأمر الذى استنكره الأمير عبدالرحمن ، فأمر بعزل ابن رستم ، وأعاد الحجابةلابن شهيد ; ولكنه أبقى ابن رستم عضواً في الوزارة ; ثم وقع التداول عليمنصب الحجابة بين ابن شهيد وابن رستم ، إلى أن مات هذا الأمير(1).

ولما تولى محمد بن عبد الرحمن حكم الأندلس سنة238هـ آثر أن يسير على السياسة التي رسم خطوطها والده عبد الرحمن ، وهي الاستمرارفي ربط العلاقات الطيبة والودية مع البيت الرستمي ; فأوفد إلى بلاط تيهرت سفارةتعبر للإمام أفلح من جديد عن احترامه وتقديره له كما عبر له عن رغبته في استمرارهذه العلاقة الصادقة بينهما وبعث له بهدية ثمينةسنة 238 هـ ، وكان محمد بن أفلح صاحب تيهرت لا يقدم ولا يؤخر في أمورهومعضلاته إلا رأي محمد بن عبد الرحمن الأموي(2).

وكنتيجة لهذه السياسةكان الأندلسيون يقيمون جاليات لهم في الجزائر وكان لهم أعضاء بارزون في مجلس الشوريالإباضي في تيهرت نذكر منهم : عمران بن مروان الأندلسي ، ومسعود الأندلسي ; وقدكانا من بين السبعة الذين رشحهم الإمام عبد الرحمن بن رستم

1ابن حيان : المقتبس ، ص27،28.

2عبدالعزيز الفلالى : العلاقات السياسية ، 107،108.

لإمامة الإباضية فيتاهرت قبل وفاته ، وذلك تأسياً بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.(1) .

لم تقف العلاقة الأموية الرستمية عند التعاون السياسي فقط ، بلتجاوزته إلى الميدان العمراني والاقتصادي ; فقد كانت السفن التجارية تتردد بينالمؤاني المغربية الأندلسية مثل ميناء فروخ الجزائري وهو الميناء الوحيد الذي ينفذمنه الرستميون إلى البحر ويقع في منطقة وهران بين آرزيون ومستغانم ، ويسمى حالياًمرسى الدجاج ، ومن الجهة المقابلة كان ميناء الجزيرة الخضراء وبجانة، وشاطبة وغيرهامن الموانئ الأندلسية ;وكانت هذه السفن محملة بالبضائع ، والعلماءوالمسافرين.

ومن جهة أخرى فقد قام الأندلسيون بإنشاء مدن وثغور على طول ساحلالمغرب الأوسط في ظل الدولة الرستمية ; واستقرت في هذه المدن الجزائريةجاليات أندلسية ، بعد موافقة القبائل البربرية على ذلك ، ومن بين هذه الثغور مدينةتينس (Tenes) التي أنشئت سنة 262 هـ ، وأصبحت محطة تجارية مهمة تختلف إليها السفنالأندلسية في فصل الشتاء ثم تعود منها في صل الصيف إلى الموانئالشمالية ; ومنها مدينة وهران(Oran) التي أقامها اثنان من رجال الدولةالأموية ، وهما : محمد بن أبي عون ، ومحمد بن عبدون وجماعتهما وذلك سنة 290 هـ ;وقد استوطنوها بموافقة القبائل البربرية أيضاً وأقاموا فيها مدة سبعة أعوام يدعونلبني أمية بالأندلس حتى ظهر عليهم الفاطميون واستولوا على تاهرت ، وضمت وهران إليأعمالهم (2).

استمر التعاون والتشاور السياسي بين تاهرت وقرطبةوغدت المراسلات بينهما تفيض بأسمى وشائج المودة والتضامن ومن ذلك أنه في عهد الإمامأفلح ، قام الأمير الأغلبي أبو العباس محمد بن الأغلب بالاستيلاء على غالب شواطئ أفريقية ، وقامت بينه وبين

1الدرجينى : الطبقات / 46/1.

2الفيلالى : العلاقات السياسية ، ص101.

الرستميين حروب انتهت بمعاهدة صلح ، ثم إن هذا الأميرالأغلبي نقض العهد ، وبنى مدينة بجوار مدينة تيهرت أطلق عليها اسم العباسية نسبة إلى شخصه وكان الغرض من ذلك مضايقة العاصمة الرستمية ومحاربة الحركة التجارية بهاوشد الحصار عليها ; وبعد إتمام بنائها وترتيب أسواقها على نسق عجيب ، قام الإمامأفلح بهدمها وتخريبها وحرقها سنة 227 هـ ; ولما تم له ذلك أرسل للأمير الأمويبهذا الخبر فرد عليه عبد الرحمن الأوسط يبارك له هذا العمل ، وأرسل له بهدية ماليةقدرها مائة ألف درهم تقديراً لعمله الجليل (1).

وقد قدم على عبدالرحمن الناصر خليفة الأندلس في سنة 333هـ رسول من أبييزيد مخلد بن كيداد الإباضي الذي ثار على الفاطميين وأوشك أن يطيح بهم في ثورةعارمة ألهبت كل شمال إفريقيا ; ويحمل هذا الرسول أنباء انتصارات أبي يزيد عليالفاطميين كما يحمل ولاء أبي يزيد للخليفة الأموي حيث يعبر عن اعتقاده فى ولاية عبدالرحمن الناصر، ويأوي إليه ، وقد عبر ابن عذارى على هذا التواصل بقوله : " واتصلت كتب أبي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته" (2)، وفي سنة 335هـ وصل إليقرطبة أيضاً أيوب بن يزيد مخلد بن كيداد الإباضي رسولاً من والده الثائر ، ورحب بهالخليفة الناصر وأكرم لقاءه وأنزله قصر الرصافة وأعد له من الفرش والأواني والآلاتما يليق بأمثاله ; وكان الغرض من هذه الزيارة أيضاً إعلان التزام الطاعة وطلب المددوالعون وفي كل حالة كان الوفد يرجع إلى القيروان بالقبول والوعد الحسن(3) .

وفي مقابل ذلك هاجرت جماعات من الجزائريين إلى الأندلس وقت الأزمات السياسية ; وقد استقر بالأندلس عدة قبائل منالبربر ، وتطورت بهم الأحوال إلى أن أقاموا تجمعات سياسية وأسسوا دويلات لهم بالقسمالجنوبي من الجزيرة الخضراء. فيذكر ابن حزم أن في

1البارونى : الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ، مطبعة الأزهار البارونية ، 186/1.

2 أنظر : البيان المغرب ، 212/2.

3 نفسه ، 214/2.

الأندلس طوائف من الإباضية وقدروي عن بعضهم مشافهة منهم العالم الناسك أبو محمد بويكني البرزالي ، وهو من علماءالأنساب الإباضية (1).

ومن القبائل الإباضية بالأندلس: بنو واسين ، وهي قبيلة كبيرة ، نجد لها فروعفي الجريد بالجنوب التونسي ، وتسمى أيضاً بنو وسيان وهي كلها إباضية وهبية ، ترجعإلى قبيلة زناته (2). وقد خرجت هذه القبيلة عدداً من العلماء منهم الشيخيوسف بن أحمد الوسياني الذي قيل عنه انه كان حافظاً ، ولكنه لا يحسن التصرف فيمعلوماته ; وقال فيه الدرجيني : إنه حامل فقه لمن هو أفقه منه (3) ، ومنهم الشيخأبو الربيع سلمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الملك الوسياني وهو أحد شيوخ الحلقالكبار ، الحفاظ للسير والآثار ، ورويت عنه أخبار وله تأليف (4). وقبيلة واسين أصلقبائل ميزاب.

ولعل معظم هذه القبيلة قد هاجر إليالأندلس عندما اشتدت وطأة أعداء الإباضية عليهم وخاصة على أثر حملات الإبادة التيشنها عليهم كل من الأغالبة والفاطميين والصنهاجيين ، سواء قبل سقوط الدولة الرستميةأو بعدها. ولكن هذه القبيلة لم تترك لنا أي أثر يذكر في الأندلس ، ولم يصل إليعلمنا أنها وصلت إلى درجة من التطور السياسي أو الاجتماعي بحيث يمكن أن يكون لها أيشكل من أشكال الحكم أو الإدارة في الأندلس.

أما بشأن الدولتين الأباضيتين اللتين حكمتا فى الأندلس فهما :

أولا : دولة بني برزال الإباضيةفى قرمونة :

أقام بنو برزال في ولاية جيان ، بالجنوب الشرقي من الأندلس بعد أن أقطعها لهمأحد ملوك الطوائف ، وهو سليمان المستعين ، وذلك في إطار سياسة ترمي إلى تشتيت شملالبربر ،

1 أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص 498.

2 صالح باجية : الإباضية بالجريد فى العصور الإسلامية الأولى ، دار بوسلامة ، تونس ، ط1 ، ص41.

3الطبقات ،1/512.

4نفسه ، 1/513.

وإبعاداً لهم عن مدينة قرطبة [1] ; وذلك في عهد دولة بني مناد ; ثم إنالوزير " الناية" قدم بني برزال في شؤون الدولة وأخر قبيلة صنهاجة ; واستمر الأمرعلى ذلك إلى أن قامت إمارة بني برزال في قرمونة ، الواقعة في منحنى الوادي الكبيربين إمارة قرطبة ومملكة إشبيلية

كان بنو برزال ينتمون إلى بني يفرنالذين هم بطن من بطون زناتة وكانوا يقطنون بالمغرب الأوسط بأرض الزاب الأسفلوالمسيلة [2]; وكانت الدولة الأموية تستعين بقبيلة زناتة ضد خصومها الشيعة ، وكان خصومالشيعة في نفس الوقت جعفر ويحيى ابنا علي بن حمدون الأندلسي صاحب مسيلة وما جاورها; فلما اضطرمت الحرب بين زيري زعيم صنهاجة وأولياء العبيديين الشيعة من جهة وبينزناتة وحلفائهم من جهة أخرى وهُزمت صنهاجة وقتل كبيرهم زيري بن مناد سنة 360هـ ، وأرسلت رؤوس صنهاجة إلى الأندلس ، واعترف جميع من شارك فى حرب صنهاجة بالطاعرة للحكم المستنصر . هاجرجعفر ويحيى في الأهل والأصحاب والمال إلى الأندلس خوفاً من انتقام صنهاجة ، وهناكقاما بخدمة الحكم المستنصر [3].

ولما استطالت صنهاجة عليالمغرب الأوسط ، شعر بنو برزال باشتداد وطأتها عليهم فكتبوا إلى جعفر بن عليبن حمدون على أن يسعى في عبورهم للأندلس ، وأن يقيموا في كنف الخليفة الحكم المستنصر .فعملجعفر على تحقيق رغبتهم ، ووصفهم لدى الخليفة بالشجاعة والانقياد للطاعة ، فأذن لهمبالجواز والعبور إلى دولته ، رغم نكاريتهم المتعارضة مع مذهبه السنى ، وقد عبر ابن حيان عن ذلك بقوله : " فقد أغمض فيهم على عوراء نحلة تبعدهم عنه

1عنان : دول الطوائف ، ص498.

2ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلاد الأندلس ، تحقيق عبدالرحمن على الحجى ، دار الثقافة ، بيروت ، 1987م ،ص192 ; وانظر : مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، جامعة فرانكفورت ، ألمانيا ، 1418هـ/1997م ، ص172 .

3ابن خلدون : العبر ، 7/ 53 ; وانظر : مفاخر البربر ، ص19.

على تسننه واشتداده فى حفظ دينه ومعرفته بخارجيتهم واعتقادهم لمقالة النكارية من الفرق الأباضية " (1).

انتظم بنو برزال في سلك الجيش الأموى بالأندلس ، وشكلوا قوة لا يستهان بها فى خدمة الحكم الأموى عبرت عنها المصادر بالقول : " ورجال البرزالة فى عسكر ضخم يقاربون السبعمائة فارس " (2).واستمروا على مكانتهم العسكرية تلك بعد وفاة الحكم المستنصر . إذ اعتمد عليهم المنصور بن أبى عامر فى عهد خلافة هشام المؤيد ، وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : " ولما أراد المنصور بن أبى عامر الاستبداد على خليفته هشام وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالى الحكم استكبر ببنى برزال وغيرهم من البربر فاعتز أمره واشتد أزره " (3). وهكذا أصبح بنو برزال من جملة البربر الذين صاروا عماد جيش المنصور إذ رتب منهم الجند واصطنع أولياء وعرف عرفاء على حد تعبير المقرى (4).

ونتيجة لخدمات بنى برزال للمنصور بن أبى عامر ولى أحد أعيانهم على قرمونة وأعمالها ويدعى إسحاق ، ولم يزل عليها طيلة أيام المنصور ، وجدد له العقد الخليفة المستعين أثناء الفتنة البربرية ، وتولى على قرمونة بعد إسحاق ابنه عبدالله (5) .

توليعبدالله بن إسحاقالبرزالى حكم قرمونة بعد أبيه واستقر بهاأهله وصحبه إلى أن وقعت الفتنة وانتشر عقد الأندلس ، فاحتفظ كل حاكم بالمدينة التييحكمها وضبط شؤونها ، وهنالك دعا عبد الله البرزالى لنفسه ، وأعلن نفسه ملكاً على قرمونة،وذلك في سنة 400هـ واستبد بحكمها وإدارة أحوالها وترتيب جندها ، وقد سار في حكمه سيرة حسنة ، وعامل

1أنظر : المقتبس ، ص192.

2 ابن حيان : المقتبس ، ص192 ; وانظر : مجهول : مفاخر البربر ، ص51.

3أنظر : العبر ، 53/7.

4 أنظر : نفح الطيب ، 297/1.

5 ابن عذارى : البيان المغرب ، 80/3.

الرعية بالرفق والعدل ، فمالت إليهالنفوس وعمرت قرمونة وسادها الأمن ، وبايعته مدن أخرى ، وغدت قرمونة بذلك إمارةخطيرة لها أهميتها في تلك المنطقة. (1).

بيد أن الأمر الملفت للنظر أن بنى برزال حظوا على مكافأة من قبل سليمان المستعين لمساندتهم إياه إذ أعطاهم ولاية جيان وما حولها فى العام 403هـ (2).

توفى عبدالله بن إسحاق البرزالى فى أواخر عام 403هـ وتولى من بعده ابنه محمد والذى بسيطرته على قرمونة إلى جانب جيان يمكننا أن نتحدث عن أول دولة للنكار .

تمتع محمد بن عبدالله البرزالى بمكانة كبيرة بين زعماء البربر فى الأندلس واشتهر بالمهابة والشجاعة وجلالة الشأن وقوة السلطان (3) ، ونجح فى ضبط مدينته وجمع الرجال وترتيب الجنود ليحقق مشروعه التوسعى خارج قرمونة ، وقد ساعده على ذلك خيرات قرمونة الوفيرة ، وموقعها الاستراتيجى ، وغنى البرزالى نفسه الذى اشتهر بذخيرة عتيدة من صامت المال (4).

دخل محمد البرزالى فى صراعات مع غيره من ملوك الطوائف فى إطار مشروعه التوسعى خارج قرمونة وهزم وانتصر إلى أن نصب له المعتضد بن عباد كمينا وتخلص منه بالقتل سنة 434هـ (5) وخلفة ولده الأكبر إسحاق بن محمدوهو في سن الكهولة ويصفه المؤرخون بأنه كان رئيساً حازماً وافر الكفاية والبأسوالفروسية ولكن دون أبيه في القسوة والفظاظة وكان كلاهما موصوفين بالعفة والنزاهةوالبعد عن آفات الملوك الشائنة ، وقد ورث عن أبيه دولة

---

1 نفسه ، 311/3.

2 ابن عذارى : البيان المغرب ، 113/3.

3 ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، 236/2.

4نفسه ، 237/2 ; وانظر : محمد عبد العمر : الأباضية النكار فى المغرب الأوسط من القرن الثانى حتى السابع الهجرى ، أطروحة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس ، 1425هـ/2004م ، ص116.

5 ابن خلدون : العبر ، 54/7.

مملوءة بالرجال ، وخزانة ممتلئة بالمال . إذ كان أبوه قد جمع ما لم يجمعه أمير قبله فى الفتنة على حد تعبير ابن الخطيب (1).

سيطر على حكم إسحاق بن محمد البرزالى كثرة النزاعات بين ملوك الطوائف فتارة نراه متصالحاً مع ابن الأفطس ، وتارة نراه مبايعا لمحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء إلى أن تنازل عن الحكم لأخيه عزيز الملقب بالمستظهر (2) ، والذى سلكسلوكاً حميداً وبايعت له البلاد التي كانت تحت أبيه ، وساد الأمن والرخاء في أيامه : " ورخت الأسعار وتمهدت الأمور وزاد فى إحسانه للرعية " (3) .

لم يدم الأمر طويلاً على هذا النحو فقد بدأ المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية في مضايقتهوإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه ، واستمرت المعارك بينهما أعواماً ، وهلك عددكبير من البربر واضطربت الأحوال في مملكة قرمونة (4)، وعندئذ بعث عزيز إلى صاحبطليطلة يعرض عليه أن يسلم له قرمونة ، وذلك نكاية في ابن عباد صاحب إشبيلية على أنيعوضه بدلاً منها قسماً من أراضيه الجنوبية ، فقبل المأمون هذا العرض ، وانتقلالعزيز بأهله وأمواله إلى حصن المدور شمالي إستجة من أرضه وعاش هناك حتى أدركتهالمنية .وبعد مناورات وفتن بين أمراء الطوائف ، انتهت دولة بني برزال الإباضية النكارية باستيلاء ابن عباد على قرمونة سنة 459هـ ، بعد أن دامت أربعة وخمسين عاماً.(5)

ثانيا : إمارة بنى دمر الإباضية :

---

1 أنظر : أعمال الأعلام ، 237/2.

2 ابن عذارى : البيان المغرب ، 229/3-235.

3 نفسه ، 312/3.

4 ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، 237/2.

5 نفسه ، 238/2 ; وانظر : عنان : دول الطوائف ، ص149 ،148 ; محمد عبدالعمر : الأباضية النكار ، ص120.

قامت هذه الإمارة في مدينة مورور أو مورون (Moron) بالقسم الجنوبي من الأندلس،وكانت تشغل رقعة صغيرة تمتد حول هذه المدينة جنوباً حتى وادي (لكه) وقام بها أيامالفتنة نوح بن أبي تزيري الدمري زعيمدمر ; وكان بنو دمر من بربر تونس ومن بطونزناتة ; وهم من الإباضية وفد جدهم أبو تزيري الدمرى إلى الأندلس أيام المنصوربن أبى عامر ، وخدم فيالجيش كسائر زملائه من زعماء البربر ، وقلده المنصور ولاية مورور، وانحاز أيام الفتنة إلى تلك المنطقةواستقر بها وبسط عليها سلطانه (1).

ولما توفى سنة 403 هـ خلفه ولده نوح بن أبيتزيري واستمر في الحكم زهاء ثلاثين عاماً ثم توفي سنة 433هـ فخلفه ولده محمد بن نوحبن أبي تزيري ، وكان محمد هذا غراً وجندياً جاهلاً خاوياً من الفضائل بيد أنه كانمقداماً جسوراً وافر العنف والفتك ، وكان حديث عهد بالإمارة ، فاستبد وبغى وتلقببعز الدولة ، واستطاع بجرأته وصرامته أن يحافظ على سلطانه وأراضيه، وكان المعتضد بنعباد صاحب إشبيلية ينظر بعين السخط إلى قيام تلك الإمارة الصغيرة إلى جانب مملكتهالقوية الشاسعة ، وأصبح يعمل الفكرة في إزالتها مع غيرها من الإمارات الصغيرةالمجاورة ، وصار يصانع مرة ويهاجم أخرى ، إلى أن أغارت جيوشه على أراضي مورور، واستقبل محمد بن نوح هذا العدوان بالحلم والصبر ولم يقابله بالعنف ، وجنح المعتضدبن عباد بعد ذلك إلى مصانعته واستمالته بالصلات والهدايا كما فعل مع زميليه أبي نورصاحب رندة ، وعبدون صاحب أركش ، ثم دعاهم وصحبهم إلى زيارته في إشبيلية وهناك قبضعليهم وغدر بهم . وهلك في ذلك الكمين سنة 445هـ محمد بن نوح ، وابن خزرون ، وقيل إنمحمد بن نوح مكث في السجن حتى توفي سنة 449 هجرية (2).

1ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، 239/2.

2إبراهيم سلامة : التاريخ السياسى والحضارى لكورة مورور الأندلسية من الفتح الإسلامى حتى نهاية عضر الدولة الأموية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2013م ، ص88،89.

خلف محمد بن نوح في الإمارة ابنهمناد بن محمد بن نوح ، وتلقب بعماد الدولة وسار على سنة أبيه من حيث الصرامة والحزم، وقصده البرابرة من إشبيلية وإستجة ، وزاد جموعه ، واستمر محافظاً على سلطانه ،والمعتضد بن عباد يكرر الإغارة على أراضية ويحرق بلاده وزروعة ، ويرهقه بطريقةقاسية منظمة . فلما ضاق بهذا العدوان المستمر ، وشعر بأنه عاجز عن الدفاع عن إمارتهكتب إلى المعتضد يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه ويخرج إليإشبيلية يعيش فيها تحت كنفه ، فأجابه المعتضد إلى رغبته وسلم إليه الأمير الأباضي النكارى حصن مورور وما يتبعه من حصون وأعمال ، وذلك سنة 458 هـ ، وهكذا انتهت هذهالدولة الإباضية ، دولة دمر، وارتحل عماد الدولة بأهله وأمواله إلى إشبيلية حيثبالغ المعتضد في إكرامه والتوسعة عليه ، وعاش هناك إلى أن أدركته المنية سنة 468هـ، وقد دامت هذه الإمارة أكثر من ستين عاماً (1).

1عنان : دول الطوائف ص152.153.

obeikan.com

المبحث الخامس : محاولات المعتزلة الإطاحة بالخلافة

سبق وأن تحدثنا بالفصل الأول عن نشأة المعتزلة ، ومبادئها ، وبعض مواقف أهل العلم منها ، ومن ثم فنحن فى هذا المبحث سنعرض لتجربتين أو محاولتين سياسيتين قام بهما المعتزلة لتأسيس دولة لهم بالأندلس وهما :

أولا : الحركة المسرية :

تنسب هذه الحركة إلى محمد بن عبدالله بن مسرة الجبلى المولود في سنة 269هـ. رحل أبوه إليالمشرق فسمع من علمائه ، واتجه الى الآراء الاعتزالية والكلامية مع تدينه ونسكه ثم عاد فأودع ابنه محمد علمه ثم رحل ثانية إلى المشرق فتوفى هناك، أما ابنه محمد فإنه واصل اتجاه والده وكانت له كذلك رحلة إلى الشرق حيث درس مع كبار الصوفيةوأهل الكلام ، وينص ابن الفرضي على أنه كان يتكلم على تصحيح الأعمال ومحاسبة النفس على حقيقة الصدق وغير ذلك من إشارات الصوفية في نحو من كلام ذي النون الاخميمي وأبي يعقوب النهرجوري الذي كان تلميذاً غير مباشر لذي النون (1).

عاد ابن مسرة بعد ذلك إلى بلده، فاستقر في دار له بناها على جبل العروس، أو الجبل الأسود في شمالي قرطبة، وكان يحيط به عدد من تلاميذه، حتى توفي سنة 319هـ (2) على أن كتب ابن مسرة وتعاليمه حينما عرفت وذاعت كانت موضع حملة الفقهاء في أيام هشام المؤيد بن الحكم المستنصر فأحرقت كتب المسريين بأمر قاضي الجماعة محمد بن يبقي بن زرب، وتعقبت السلطات أفراد هذه المدرسة متهمة إياهم بالزندقة (3).

1أنظر : تاريخ علماء الأندلس ، 1/39،40.

2كامل محمد محمد عويضة : ابن مسرة الفيلسوف الزاهد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1414هـ/1993م ، ص22.

3عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، 1/433، 432.

وقد نص المترجمون لابن مسرة على تأثره العميق بآراء ذي النون المصري وتلاميذه من بعده ، والواقع أن الذي يتتبع ما حفظ لنا من آراء الصوفي والمعتزلى الأندلسي في كتاب الفصل لابن حزم والفتوحات المكية لابن عربي وغيرهما من المراجع المتأخرة ليلاحظ بالفعل أن هناك تشابهاً بينها وبين آراء ذي النون.

وأول ما نلاحظه من ذلك أن تصوف ذي النون كان خطوة في سبيل تكوين فلسفة وحدة الوجود التي فصلها ابن عربي والتي أشار إلى أنها تستمد من رأى ذي النون في العرش.

كذلك نشير إلى كلام ذي النون عن اسم الله الأعظم الذي يعتبر العلم به قمة المعرفة، وقد كان هذا أيضا من أسس الفلسفة المسرية وتناوله محيي الدين بن عربي بحديث مفصل كان له أثر بعيد في التصوف المسري في العصور الوسطى (1).

ونلاحظ أيضا أن ابن مسرة اتبع في سلوكه طريقة تشبه تلك التي استنها ذو النون، فقد اجتهد المتصوف الأندلسي في أن يكون له ظاهر يقتنع به العامة والفقهاء باعتباره عابداً ناسكاً بينما يحتفظ لنفسه ولخاصة تلاميذه بأرائه التي قد تبدو للجمهور بعداً عن الشريعة أوخروجاً عليها، وهوفي هذا يشبه ما كان يجري عليه ذوالنون .

على أن هناك فرقاً واضحاً بين تفكير الرجلين :فذو النون كان صوفياً بمعنى الكلمة عدواً لآراء المعتزلة، منابذاً لأهل الكلام، مناهضاً لآرائهم في حرية الإرادة حتى أنه تعرض للاضطهاد من أجل ذلك، أما ابن مسرة فقد ابتدع منهجاً غريباً مزج فيه بين التصوف والاعتزال، حتى أن التهمة الكبرى التي وجهت إليه هو وأصحابه كانت أخذهم بما قال به المعتزلة من نفي القدر، والاستطاعة أي حرية الإرادة.

وأيا ما كان الأمر بشأن تصوف ابن مسرة . فأمر اعتزاله كان أشهر من أن يذكر ، وكان اختفائه فى الجبل وتعليمه لمجموعة من الأندلسيين ، فضلا عن انتهاجه نهج التأويل ، وأحاديثه فى القدر . كل ذلك ألب الرأى العام عليه ، ووجهت له ولأتباعه تهمة الزندقة ،

1 كامل محمد محمد عويضة : مرجع سابق ، ص93.

وراحت الخلافة تستأصل شأفتهم كفئة تريد أن تضر بالمجتمع وتسعى لإفساده ، والإطاحة بحكامه ، ومن ثم وجدنا كتاباً شديداً يصدر من أمير المؤمنين عبدالرحمن الناصر بتتبعهم فى كل مكان فى الأندلس مما يؤكد على أن الأمر لم يكن قاصراً على الخلاف الفقهى أو الدينى . بل تعداه إلى ما يمكن أن نسميه محاولة للإطاحة بالحكم الأموى فى الأندلس ، وقد اختتم ابن حيان كلامه بعد أن ذكر نص كتاب الخليفة عبدالرحمن الناصر فى التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه ، والذى أنفذ إلى آفاق ملكه .. فقال : " وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم، بقية أيام الناصر لدين الله " (1).

ثانيا : حركة عبدالملك بن منذر بن سعيد البلوطى :

وهى محاولة قام بها أحد أبناء القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وهو عبدالملك ، وهذه المحاولة عرفت بالانقلاب على الحجابة العامرية ، وكان عبدالملكمتهماً بمذهبالاعتزالعليحدقولابنحزم (2) ، وقد انكشفت المؤامرة وصلب عبدالملك بأمرالمنصوربن أبيع امرلاته امهأن هوجماعةمن الفقهاءوالقضاةيبايع ونسراًلعبدالرحمن بن عبيد الله بن الناصر، وقد ق العبدالملك يوم صلبه

"اللّهم إنكن تكشف تسترى فى الدنيافلا تكشفه فى الآخرة ياأرحم الراحمين " (3).

ويبدو أن أبناء قاضى القضاة المنذر بن سعيد كان لهم دور كبير فى تأسيس الاعتزال بالأندلس فهذا ابن آخر للمنذر وهو

حكم كانرأس اًللمعتزلةبالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمه موناس كهم على حد قولابنحزم (4)، وهذا عبدالوهاب بن منذر أيضا وجهت له تهمة الاعتزال ونسب إلى مذهب ابن مسرة ، وانحرف عنه الفقهاء فتكلموا فيه (1).

1ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شالميتا ، 30/5 .

(2) أنظر: طوق الحمامة، ص45.

3عبدالباقى السيد : تاريخ أهل الظاهر ، ص148.

(4) أنظر: طوق الحمامة، ص45.

بيد أن الأمر الذى شكل خطورة حقيقية أن تترك حركة عبدالملك بن منذر أثراً فى نفوس العوام فينتفضوا فى حركة واسعة ضد قاضى الجماعة محمد بن يبقى بن زرب المالكى الشهير خلال حكم الحاجب المنصور بن أبى عامر [2] ، وهو ما يؤكد الدور السياسى للمعتزلة فى الأندلس .

obeikan.com

1ابن بشكوال : الصلة ، 380/2.

2البناهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص78،79.